كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 72 الأربعاء 4 آب / أغسطس 2004



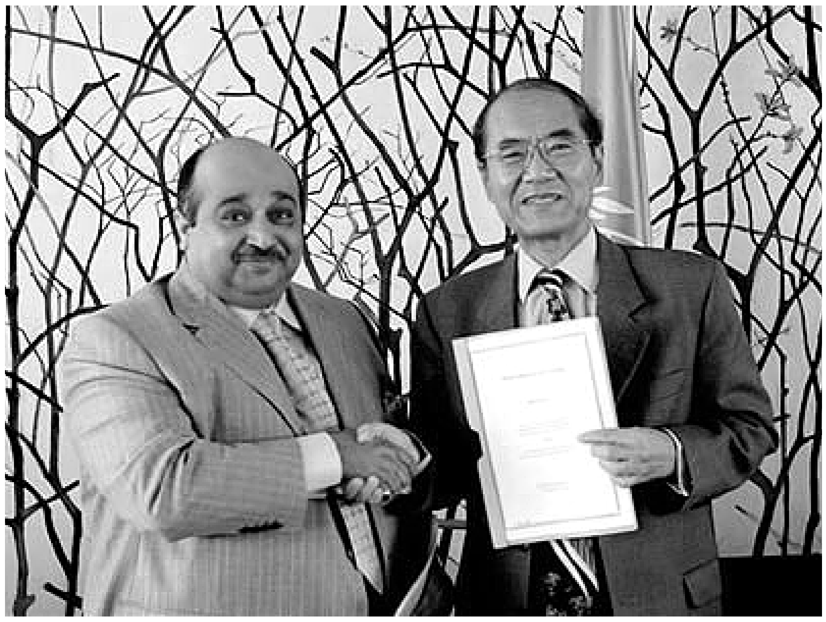
الوتد

خيري شلبي

رسوم كريم سيفو

النهضة
الشريك الثقافي
MBI FOUNDATION
المؤسسة الراعية

إتفاقية التعاون بين منظمة اليونسكو ومؤسسة محمد بن عيسى الجابر



وقّع في يوم الجمعة 19 سبتمبر 2003 في مقرّ اليونسكو بباريس المدير العام لليونسكو المستر كويشيرو ماتسورا وسعادة الشيخ محمد بن عيسى الجابر رئيس مجلس إدارة مجموعة إم بي أي العالمية MBI INTERNATIONAL ومؤسّس إم بي أي MBI FOUNDATION ومعهد لندن للشرق الأوسط LONDON MIDDLE EAST INSTITUTE، إتفاقية تعاون مشتركة بين اليونسكو و MBI FOUNDATION وذلك في مجالات التعليم والثقافة.

تركّز الإتفاقية أوّل إهتماماتها على تطوير وتحديث النظام التعليمي في الشرق الأوسط وما يمكن القيام به لترقية وتشجيع ثقافة السلام والديمقراطية، بجانب مشروع إدخال الحرف العربي في الإنترنت ومشروع «كتاب في جريدة» وقد بدأ تنفيذه بالفعل.

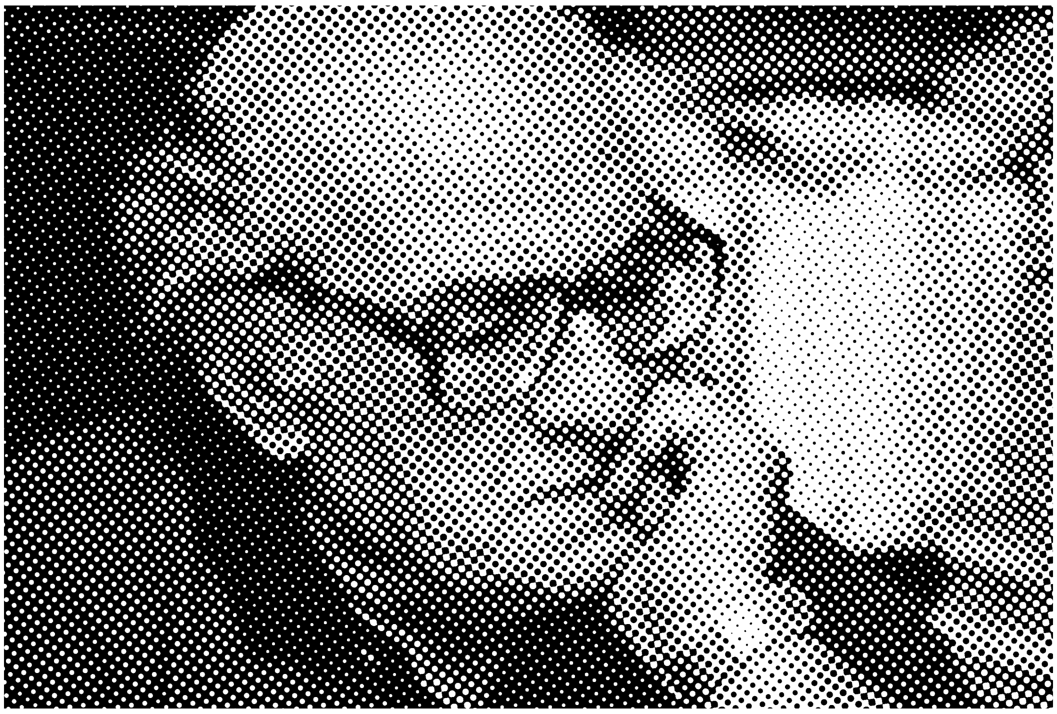
المؤلفات المقرّة 2004 / شباط – 2005 / كانون الثاني*

التاريخ (أول أربعاء من كل شهر)	إسم الكتاب	الكاتب	الرسام
11 شباط / فبراير 2004	الضوء الأزرق	حسين البرغوثي، تقديم: غسان زقطان	حسن الحوراني
3 آذار / مارس 2004	مختارات شعرية، عبدالله البردوني	إعداد وتقديم: عبد العزيز المقالح	سبهان آدم
7 نيسان / أبريل 2004	ليلى المريضة في العراق	زكي مبارك، إعداد وتقديم: محمد مظلوم	سعد يكن
5 أيّار / مايو 2004	مختارات شعرية، عمر أبو ريشة	إعداد وتقديم: حسين راجي	فاتح المدرّس
2 حزيران / يونيو 2004	تجديد الفكر العربي، نصوص مختارة	زكي نجيب محمود، إعداد تقديم: محمد مظلوم	سلوى زيدان
7 تموز / يوليو 2004	الأمير الصغير، أنطوان سانت أكزوبري	ترجمة: يوسف غصوب	نديم الكوفي
4 آب / أغسطس 2004	الوتد	خيري شلبي، تقديم: محمد مظلوم	كريم سيفو
	مختارات شعرية، سنية صالح	إعداد وتقديم: ممدوح عدوان	نزار اسماعيل
	إدوارد سعيد، نصوص مختارة	إعداد وتقديم: د. جابر عصفور	فوتوغراف
	حارث المياه	هدى بركات، تقديم: فيصل دراج	تانباك
	ديوان النثر العربي، نصوص مختارة	إعداد وتقديم: أدونيس	أدونيس
	مذكرات أميرة عربية	سلمى بن سعيد بن سلطان	ديما حجار

* المؤلفات المؤشرة باللون الرمادي هي التي صدرت إلى الآن.

خيري شلبي

ولد خيري شلبي في الإسكندرية بمصر.
تتميز تجربته بزهد في رفاهة الحياة، تقابله غزارة لافتة في العطاء الثقافي، وشهوة في الكتابة تجسدت في أكثر من سبعين عملاً في شتى صنوف الثقافة تراوحت بين القصة والرواية والمسرح والدراسة والسير الشعبية، إضافة إلى العشرات من المقالات.
من أعماله «وكالة عطية» الفائزة بجائزة نجيب محفوظ للرواية لعام ٢٠٠٣، و«صهاريج اللؤلؤ» و«الأوباش» و «أعيان مصر. وجوه مصرية معاصرة» و«السنيورة» و«الشطار» وثلاثية «الأمالي لأبي علي حسن ولد خالي» و «موال البيات والنوم».
تبدأ أحدث «رباعية الوتد» من إحدى قرى ريف النيل، ومع أن الريف المصري عموماً يحضر بقوة في الأدب الروائي المصري، خلال القرن الماضي، إلا أن استحضاره غالباً ما صدر من دوافع وإسقاطات مفهومية لا تخلو من عسف، إذ ما برح نوعاً من التعبير «الإليغوري» عن معادلة لصراع ما، أو كناية أو حتى إفصاح عن تباين طبقي، لكنه في «الوتد» عالم سير متداخلة لا تعوزها البراءة، يصبح الرمز هنا كناية عن تأويل وليس مقصداً بحد ذاته، فبين زمن ما بعد الحرب العالمية الثانية مروراً بزمن عبد الناصر والسادات عبر إشارات عابرة، لكنها ذات مغزى، ينظر الراوي من أمكنة وزوايا متعددة، وكأنها يطل على زمن واحد عبر أشخاص وأحداث وعناصر مختلفة، ليجعل من الأشياء خزائن تأويلية غنية الموارد رغم أنها تتجلى في الغالب بمفردات صغيرة مبذولة وعابرة.
ولا يكاد الراوي، طفلاً أو صبياً، يستجيب للمجرى الفيزيائي للزمن، فهو إذ يحظى بفرصة النوم في غرفة جدته فإنه سيرى الأسرار ويعرف الكثير ليرويه، كذلك عندما يصحب أمه إلى مطاحن الدقيق، أو إلى السوق، أو يرى في «أيام الخزنة» أبعد مما يتيحه قبو صغير تتكدس فيه الأسرة وتغطي جدرانه صور الزعماء!
ويمكن القول إن المجتمع الأمومي، يتجسد في هذه الرواية تجسداً فصيحاً، لكنه ليس التجسد الأنثوي المحض فحسب، بل بما تنطوي مظاهر الأمومة من دعة روحية ودفء، غير منبتة عن خصلة الصرامة الطبيعية في مجتمع يحتاج دائماً إلى وتد وبوصلة!
وتمثل الحاجة فاطمة تعلبة خلاصة هذا «الوتد» سواء بما يعنيه من رسوخ الوتد في الأرض وموقعه من البيت، أو بتجذره الذي يجعله مرجعاً لما حوله ومن حوله فمن «المنخل الحرير» إلى «العتقي» فـ «أيام الخزنة» تتغير أمكنة الرواية بين بيوت وغيطان وطرقات وأقبية ودكاكين ومشاغل، وتتكثف خبرات الحياة، ويتحرك الزمن ببعديه التاريخي والفني، فيما يبقى الصبي راوياً بعين الشاعر الذي يرى ويجوب عبر دوران قطب رحى الزمان والمكان: المرأة معبراً عنها بصورة الأم.
تبقى «فاطمة تعلبة» ملتصقة في الرواية بنسبها رغم أنها ثمرة غريبة ووحيدة أثمرت شجرة نسب أخرى بعدما اقترنت بعائلة العكايشة، لكنها هي التي وسعت مساحات الأرض الزراعية وأكثرت من أنواع المواشي، وملأت البيت



بسبعة أبناء يشكلون ذرية العكايشة المتنفذة في القرية لا من سلطة مكتسبة بل من معطى ذلك المجتمع الأمومي.
فالرجل القوي في البيت هو ابنها البكر، لكننا نراه يقف أمامها كما يقف أمام آلهة فرعونية! فيما امرأة أخرى «مريم» تحلم أن تؤول إليها وراثة عالم الحاجة فاطمة.
تمتد خريطة «العكايشة» عبر مساحات وتباينات متعددة، وتتشابك في أهواء وأمزجة ونزعات متعددة، لكنها تبقى دائماً محكومة بمرجعية الجذور، وبمدارها «الوتدي» في منزل واحد.
واضح إن أدوات السرد في «الوتد» لا تخرج كثيراً عن مسار سائر أعمال خيري شلبي في اعتمادها على نبرة الحكي الشعبي بما يختزنه من بلاغة خاصة، والمأثور الشفاهي الذي يجري تدوينه عبر لغة الحياة نفسها، لا عبر لغة القاموس الذي يكتب المجاز بينما يجتاز الحياة نفسها، وهي تنحسر إلى حد بعيد.
وعندما يعتمد الراوي ضمير المتكلم الواحد عبر الأزمنة المتداخلة لهذا العمل، ستبدو فكرة المؤلف الراوي، أو ظلال السيرة الذاتية في مثل هذا العمل واحدة من الافتراضات النقدية ليس إلا، أقول الافتراضات، لأن مفاصل عدة في العمل تذهب بهذا الفكرة أحياناً نحو عواصف من حيوات وسير أخرى غير ما توحي به الدلالة الأولى.
يحضر الشعر في الوتد، لا من خلال اللغة المجازية أو الصور المحتدمة استعارياً، في مستوى السرد أو مستوى الحوار القليل، بل بهذه القدرة على التقاط اللحظات العابرة، وتأطيرها في زمن جمالي مشتبك، تدخل العين والذاكرة، مثلما تتداخل الحواس الأخرى، في صياغته.
وإلى جانب هذه اللغة المكثفة التي لا تكاد تسيل خارج حيزها، ثمة موسيقى عضوية للمفردة، لا تكاد تنشز عن البنية العامة للسرد، اقتصاد وتكثيف محكم بعناية لافتة تجعل للشعر حضوره الإضافي في هذا العمل.
رصد عالي الجمال لحواس مستنفرة تراقب حركة الحرفيين، ودقيق المطاحن، وأسرار الغرف، وحكايات الأجساد، وخطى العابرين في القرية حفاة ومنتعلين! لتقدم الراوي شاهداً من نوع آخر على وقائع مهمشة ومهملة ومنحاة كثيراً في الكتابة الأدبية عموماً.

محمد مظلوم

كريم سيفو

من مواليد الموصل، العراق، سنة ١٩٥٣. تخرج من كلية الفنون الجميلة، بغداد، ١٩٧٩، ثم سافر إلى فرنسا للدراسة حتى سنة ١٩٨٤. شارك في العديد من المعارض المشتركة ابتداء من العام ١٩٨٢ وأقام معرضه الشخصي الأول في بغداد سنة ١٩٩٠. حائز على جوائز محلية عدة. يعيش ويعمل في بغداد..

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَّر
بيروت، لبنان

* **يصدر بالتعاون**
مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه ـ محامون"

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر



كتاب في جريدة
العدد السابع للإنطلاقة الجديدة
التسلسل العام: عدد رقم 72
(4 آب 2004)
ص.ب 1460 ـ بيروت، لبنان
تلفون 601 798 (1-961+)
فاكس 614 791 (1-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

الوتد

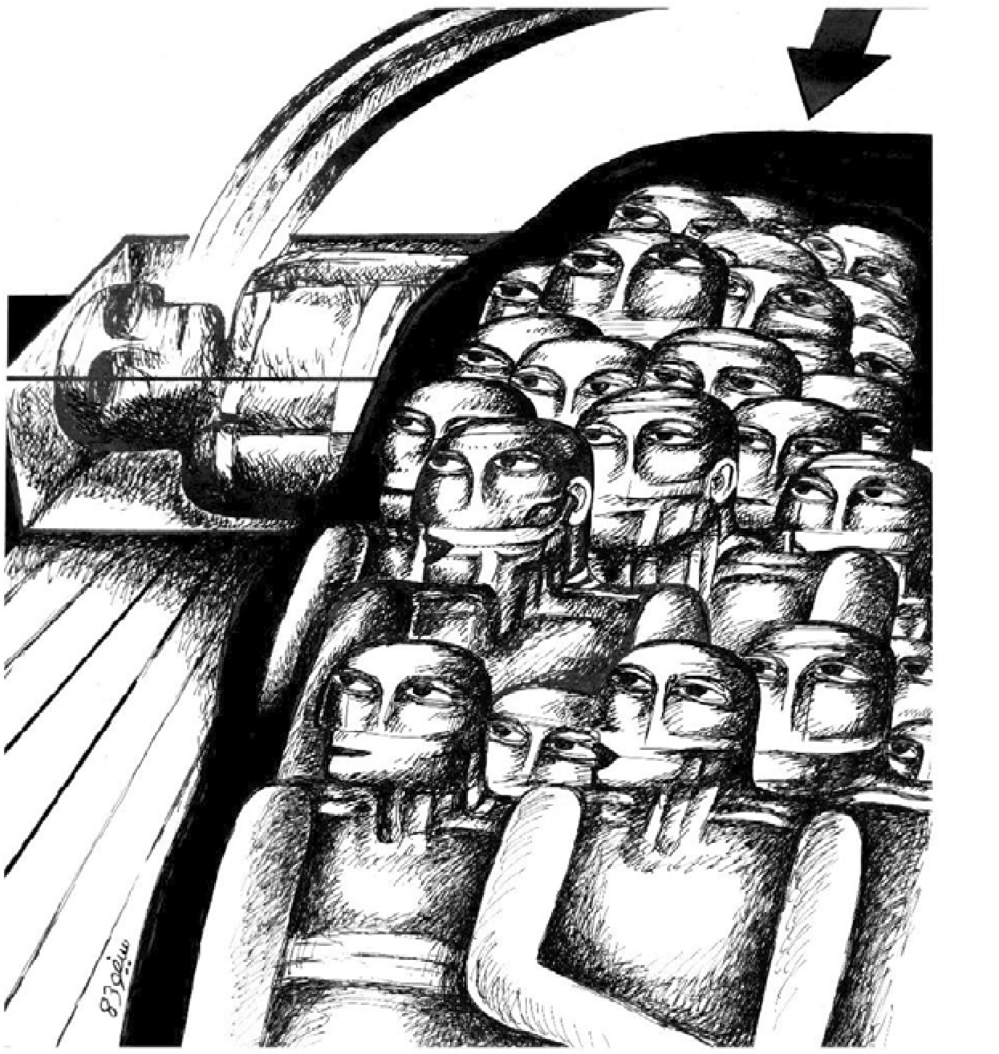
خيري شلبي

الوتد

كثيراً ما تمنّى أبناء الدار موت الحاجة (تعلبه). مع ذلك ما تكاد تلم بها وعكة صغيرة حتى تنقلب الدار كلها كأنما القيامة على وشك أن تقوم. يجيء حلاق الصحة وينصرف عدداً من المرّات، ويحضر القريب والبعيد من الأقارب والأصهار والمعارف، حتى لتصير الحارة كلها ـ وهي كلها بيوتنا ـ زريبة كبيرة تضيق بركائبهم التي يبدو عليها الحزن هي الأخرى، إذ تقف مدلية الآذان عازفة عن الطعام والنهيق. وتتحول الدار إلى مُولِد صغير تروح فيه النساء بقلق مصطنع، ويظل «المنقد» مشتعلاً وفوقه براض الشاي يغلي وينشر رائحته النفّاذة... ويفرح الأطفال الصغار ويطير النوم من عيونهم.

في العادة لا يطول مرض الحاجة «تعلبه» فكثيراً ما سلّم الأولاد بموتها واستعدوا لتجهيز الكفن، فإذا ما انشرخت السماء عن قرص الشمس وتسللت أشعّته من الناروزة في وسط الدهاليز، فوجئ الجميع بصوتها يهمهم في وسط الدار متمتماً بالأدعية فيما هي تتوضأ. على الفور تطقطق الأسرّة داخل القاعات المغلقة وتتسابق نسوان الدار في الخروج إليها. حينئذ لا تتحرك الحاجة «تعلبه»، تظل منحنية على درجات السلم الطيني في مدخل الكنيف تواصل الوضوء والهمهمة غير عابئة بأحد. لكن نسوان الدار غير تائهات عنها، فهنّ يتأكّدن أنها ترى بظهرها وتستطيع أن تعرف ـ دون أن تنظر ـ أي باب انفتح من أبواب القاعات وأيها ما زال مغلقاً، وإن هي إلا ثوان معدودة حتى تستدير عائدة بإبريق الماء متوجهة إلى قاعتها الخاصة. تسب بنت أم صفيحة وتلعن بنت أبي جوال والبنت التي لا تسمّى، فقاعتها حتى الآن لم تفتح، إنها بنت عاهرة لا تريد أن تبرح حضن الولد وسوف تقضي عليه في جمعة وتفقد الدار ولداً، هو أيضاً يجب أن يختشي على دمه ويضع في عينيه حصوة ملح، يجب أن يكون رجلاً بحق وحقيق فيدفعها بعيداً عنه ويصحو، وهذه البنت التي لم تنم إلا بعد الفجر، أليست تعرف أن اليوم يومها في كنس الدار وهذا الولد الشملول أليس الدور عليه ليسرح بالبهائم؟ وهذا الطويل الهايف أبو نبوت ولاسه هل نسي أنه المكلّف بانتظار المياه في الترعة الشرقانة؟ وهذا العيان بكيفه أليس وراءه ساقية سوف تدور في الحوض الجديد؟... فليدر عليكم الزمن جميعاً ويدوخكم طول حياتكم يا أبناء بطني لتكن هذه نومتكم الأخيرة باذن اللّه... هل هذا عدل؟ هل هذه رجولة؟ هل من طبعنا أن تركبنا نسوان الدار؟ هل خلّفت رجلاً لينام في حضن امرأة؟ إن هي إلا قحباء ابتليت بها الدار في الزمن الأعمى...

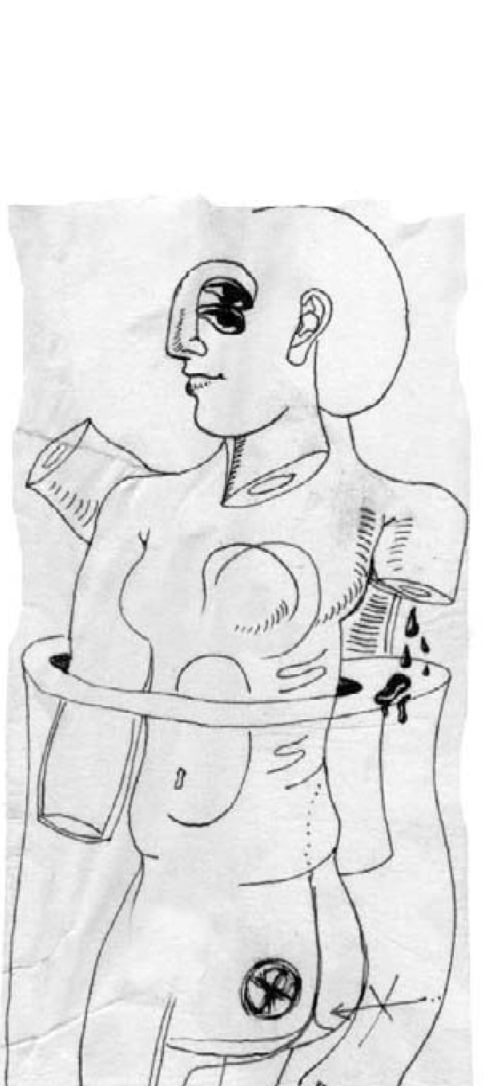
يكون يوماً أسود على تلك التي تأخرت في الصحو عن بقية النسوان، ويضيع صوت الحاجة تعلبه في زحام شديد من الكلمات لا يعرف أهل الدار إن كانت صلاة أم دعاء أم لعنات. البنت «سميحة» بنت ابراهيم الكاشف التي هي آخر زوجة



دخلت هذه الدار لأصغر أعمامي «طلبة» هي الوحيدة التي تأكل عقل الحاجة، دائماً في قدميها وتحت يديها، دائماً كانسة غاسلة صاعدة هابطة من الدار إلى السطح تستقبل البهائم ترتب الزريبة تحلبها ولا تكف عن الحركة، حتى عند الغذاء أو العشاء تكون آخر من تأكل من نسوان الدار الثمانية الباقين. ذلك أن دارنا تضم تسع نساء غير الحاجة تعلبه. «زوجة عمي درويش» الذي من فرط قوته وكبر مقامه في البلد يبدو أكبر سناً من أمه تعلبه. وزوجة «عمي عبد العزيز» الذي هو كبير أيضا وله عصا شهيرة مثل عصا «عمي درويش» وربما أفخم، هو يلي في الأهمية «عمي درويش» إذ يدخل في اختصاصه كل ما يتعلق بشئون الزرع والقلع والحصاد والتذرية والتخزين. وزوجة «عمي عيسى»، الذي يلي «عمي عبد العزيز» في السن فقط ولا يليه في الأهمية لهبوط طبعه وميله إلى الأكل والسخرية وعمل نوع من الفصولات المضحكة في خلق اللّه بقسوة؛ كثيراً ما تترتب عنها نتائج سخيفة تنزعج لها الدار وتضطر «عمي درويش» لاستقبال كثير من الضيوف الغاضبين، وتكلّف الحاجة تعلبه حفنة من الشاي وهبرة من السكر المخزون دائماً في دولابها الغائص في الحائط بجوار رأسها مباشرة، ولذا فإن «عمي عيسى» قد اختص بأمر واحد فقط هو الجمل، هو المسؤول عنه مسؤولية تامة، يؤكله وينيمه في «المنخ» المعزول وحده جوار الزريبة أو يقص شعره أو ينقل به الأحمال للدار ولدور الآخرين، وقد علم جملة صفاته ابتداء من تدخين اللفائف إلى الضرب فجأة في الأرض براحة القدم حتى ليرتعد من حوله، فإذا ما ارتعد أحد أو صرخ من المفاجأة صهلل الجمل كصاحبه تماماً وضرب بالقلة التي هي لسانه حين يخرجه إلى جانب فمه مبقلاً بصوت ضاحك. وزوجة «عمي طاهر»، القصير، الذي يبدو أصفر بعلة وكرش لكنه ناشف كعود الحديد، له اختصاصات كثيرة وغريبة، وهو المسؤول عن الطحين، يحمل القمح على بضع حمير إلى الموردة على ترعة المشروع ليغسله، ثم يعود فيشرف على نشره في الشمس، ثم يحمله إلى ماكينة الطحين فيطحنه ويعود به، هو المسؤول كذلك عن خدمة «عمي درويش» وضيوفه الذين لا يفتأون يدخلون الدار ليل نهار صائحين: يا رب يا ساتر، وما بين يا رب ويا ساتر ومع السلامة يا رجالة،

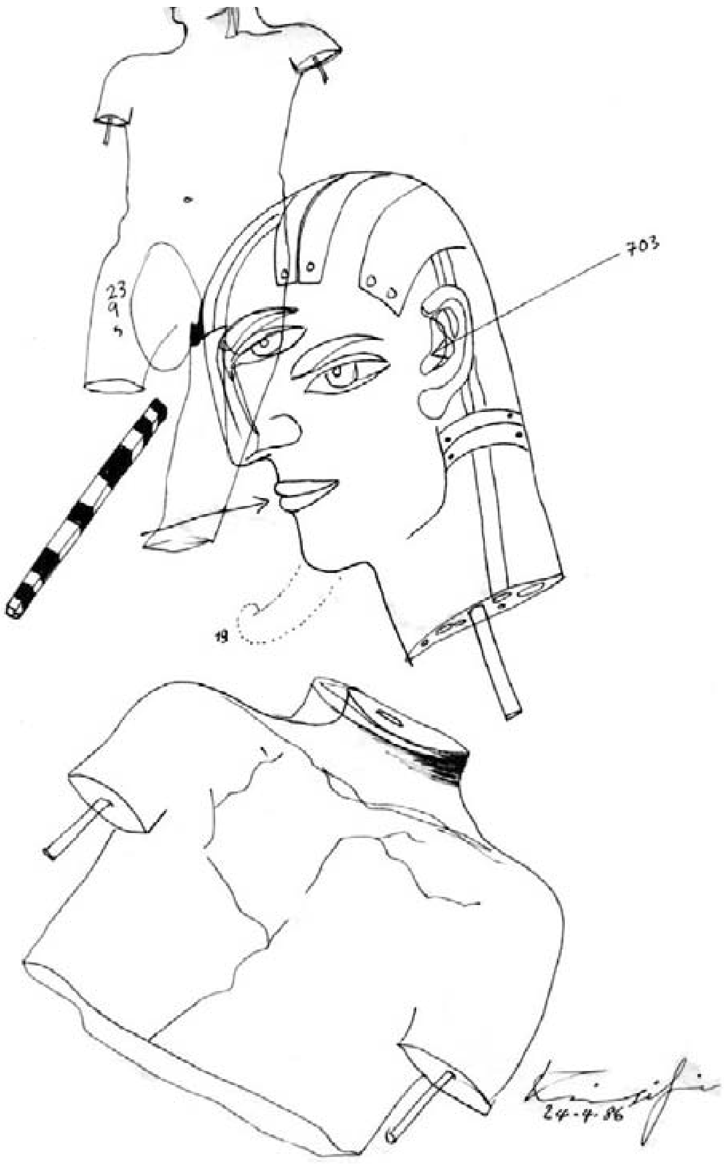
دقائق بل ثوان لأن المُقبلين يصطدمون بالمنصرفين دون توقف، «عمي طاهر» يستقبل ركائبهم فيلحقها بالزريبة ويعود بها إليهم عند الإنصراف مرتّبة البرادع، هو كذلك صاحب السلطنة في قعدة الشاي، خبير بتوليع القوالح في المنقد واخفائها تحت الرماد مشتعلة لتبقى زمناً طويلاً يسمح لعمي درويش في أي لحظة أن يقول في ثقة: رص كرسي دخان يا طاهر. وزوجة «عمي صادق» المسكينة، منذ تزوجها لم يقدر لها أن تهنأ في حضنه شهراً كاملاً، فشغلته طلوع الأسواق ينتقل إليها من بلد إلى بلد ويمكث هنا يومين وهنا ثلاثة يبيع ويشتري للدار أشياء كثيرة يستلقط جملاً، يتخلّص من جاموسة غير مدرارة، يبيع صوف الغنم وزبل الحمام، لعودته فرحة لا مثيل لها، ففي إخراجه أحرمة وبطاطين وأقمشة وطرح وبلغ وشباشب وهريسة وحب العزيز والحمّص كثيراً ما يفاجأ القوم بأن أطفال الحارة كلهم ـ وهم أبناؤنا أيضاً ـ قد أصبحوا يلبسون الطواقي الجديدة الملونة المزوقة فيعرفون أن «عمي صادق» قد عاد بليل. وزوجة «عمي عبد الباقي» الغنّام، الوحيد الذي يعرف كيف يتعامل مع الحاجة «تعلبه». يحب عادتين في حياته إلى حد العشق: التوغّل بأغنامه في حقول بعيدة وشوارع وعرة، والذهاب إلى مُولِد سيدي إبراهيم الدسوقي كل عام أياً كانت الظروف والأوضاع، يقضي هناك الأسبوع كله إذ هو درويش وأخذ العهد على يدي عمه في الطريقة الشيخ الشرنوبي، وهو خير من يذبح له ذبائحه ويسلخها ويطهيها ويأكل أطايبها عن طيب خاطر من الجميع، والحاجة «تعلبة» لا تعطيه أو تعطي أحداً نقوداً يصرفها فضلاً عن أن يذهب بها إلى الموالد، وهو يخرج لها لسانه في السر، إذ هي لا تعرف عدد الأغنام التي يشغى بها «المراح» الكبير جوار الدار الكبيرة، فما أسهل أن يخبّئ عنزتين وثلاث حوالا سرعان ما تكبر وسرعان ما يبيعها في الطريق ليشتري الدخان اللّفّ وخيوط الصوف التي يصنع منها الطواقي بالسنة المدببة فيما هو سائر خلف الأغنام، ويدخر منها للمولد. وزوجة «عمي طلبه» أصغر الأعمام، الذي لبس الجبة والقفطان والعمامة من طفولته ودرس في المعهد الديني بدسوق أعواماً طويلة من سنة أربعين حتى العام الثامن والأربعين من القرن العشرين كما يحلو له أن يردّد، عاد بعدها يحمل لقب الشيخ إلى الأبد، يؤم الناس للصلاة في مسجد «العصاروة» ويخطب من على منبره خطبة الجمعة ممسكاً بالسيف الخشبي المعد لذلك فيبدو بشبابه المزهر ووجهه المتورد تحت العمامة المقلوظة ذات الطربوش القرمزي، والشال الأبيض بياضاً ناصعاً بفعل شطارة سميحة بنت الكاشف زوجته التي تتباهى أمها كلما رأت شال الشيخ بأن غسيل أبنتها يشرب من فوقه العصفور، يبدو الشيخ طلبة كنبي صغير يهز القوم بحدّة نبراته وزلزلة صوته الجهوري المَرِن ينطق اللغة العربية بنفس اللهجة الفخيمة المقلوظة التي يقرأ بها آيات القرآن الكريم والأحاديث، يتلوّن صوته صعوداً وهبوطاً، خفة وشدة، رقة وخشونة، يؤنّب ويبكت، يسخر ويشمت، يأسى ويبكي، يغنّي ويترنّم والناس من حوله في مصمصة شفاه وبسملة وصيحات ألفاظ وسيل دموع، أمين أمانة مطلقة، لا يقبل ابداء ملاحظة، لديه ميزان قباني كان في الأصل من ممتلكات العائلة إذ أن واردها كثير وصادرها كثير فلا بد أن يكون لها ميزانها الخاص، وقد آل أخيراً إلى عمي الشيخ «طلبه»، ليس عن رغبة في كسب فما أزهده، بل من قبيل نشر الموازين الصحيحة بين الناس، فهو على الأقل يثق في صدق موازينه ويدمغها باستمرار، يسجل صياحه عند الميزان عدد الشرط التي قد تزن درهماً، إن اشترى منك شيئاً أعطاك، فإن لم تجد فكة ورقة مالية مثلاً فإنه يترك الشيء بإصرار لا يقبل الجدل، وإن باعك شيئاً فبالصلاة على النبي، لا ينطق من فمه سعراً أبداً، يدعوه أصحاب مخازن الحبوب من التجار الكبار والعائلات الكبيرة ليكيل لهم بمكياله قمحاً أو ذرة أو شعيراً أو برسيماً أو فولاً، فتراه يشيع المكيال مع ولد منا، ثم يخطف ركعتين على الماشي بمناسبة مروره على المسجد، إذ لا يصح أن يمر على مسجد دون أن يحييه ولو بالتطهر من أداء الحاجة، وما دمت تطهرت فالأحسن أن تتوضأ لتكون جاهزاً على الدوام للصلاة، وما دمت توضأت فلا بأس من ركعتين سنة الوضوء، وقد يحل الظهر بعد خمس دقائق ولم يجيء المؤذّن بعد، فليبق ـ بالمرة ـ يؤدي الأذان على باب المسجد، ثم يتلكأ في صلوات الصدقة، فهذه صلاة ظهر بالنيابة عن أبيه الذي لم يكن يصلي، وظهر آخر بالنيابة عن الحاجة تعلبه، وثالث بالنيابة عن نفسه لظهر قادم قد لا يكون فيه حياً يرزق، حتى إذا ما تجمّع في صحن المسجد عدد كبير يملأ العين بثلاثة صفوف أو أربعة ابتهج بهجة عظيمة وشرع يقيم الصلاة متقدماً نحو الايوان المجاور للمنبر، فإذا ما انتهى من الصلاة ظل وقتاً طويلاً في ختام كأنه يجدّد العهد كل وقت بنفس الحماس، ثم ينهض في بسملة وحوقلة متأبطاً شبشبه المتين الجديد باستمرار، حيث يوسع له الآخرون فيرمي شبشبه على العتبة الخارجية فيصك الأرض فيعبر بقدمه الدرابزين الخشبي ثم يمضي إلى العمل الذي طلب له، فما أن يصل حتى يخلع الجبة والقفطان والعمامة ويسلمها لأهل الدار ويرتدي جلباباً قديماً وطاقية، حيث يغوص في جبال من الحبوب ممسكاً بورقة وقلم من الكوبياء يرقب الكيال وهو يملأ المكيال ويعد، وينبّه إلى أشياء لا تصحّ، وعند الزوائد والنواقص يقف في صف المشتري على طول الخط، خاصة إذا كان يشتري للأكل لا للمتاجرة.

ويحق لدارنا وللعكايشه كلهم أن يفخروا بعمي «الشيخ طلبه» الذي تكاد شهرته في العب كله تنافس شهرة «عمي درويش» لولا أن العين لا تعلو على الحاجب. جميعاً نحبه ونحترمه ونقف له إذا فات علينا ونحن جلوس في أي مكان. ولم يكن يعيبه في نظرنا سوى شيء واحد... وقوفه دائماً في صف الحاجة «تعلبه» مظلومة أو ظالمة، فهي دائماً أبداً تصيح معلنة بأعلى صوت أنها مظلومة في هذه الدار ولا أحد يريد أن يرحمها. وكل أعمامي يعرفون سر وقوفه في صفها، إذ هي التي تمدّه سراً بما يحتاجه من أموال، ولها كل سنة حجة وفي كل حجة يحظى هو بنصيب الأسد من هداياها، من جبب وقفاطين وشيلان كشمير وشاهي وقطيفات وسبح وطرابيش حتى جعلت منظره ـ كما تقول ـ عليه القيمة مثله. وأعمامي لا يتورعون عن مصارحة «عمي طلبه» برأيهم في موقفه، ولكن بنفس الدرجة من الاحترام والتوقير كأن يقول له عمي عبد العزيز مثلاً: «يعني يا شيخ طلبه ما هو برضه انت مش ممكن حتجيب عليها الحق أبداً واحنا عارفين». فيبتسم عمي الشيخ طلبه ويهز رأسه كأنه يقرأ القرآن فيما هو يخيط بردعة حماره الخاص: «لا دخل لهذا والله... أعرف ما تفكرون فيه... لكن لا دخل لهذا أبداً». ولو استمع «عمي درويش» لردّه هذا لركّز فيه

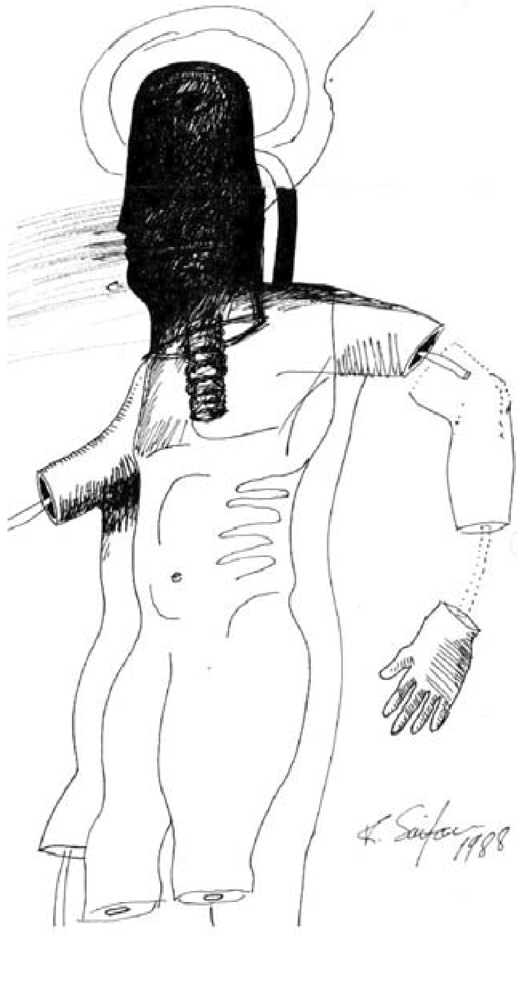


عينيه النافذتين رافعاً حاجبيه في سخرية واستنكار مردّداً من بين نواجذه: «اطلع من دول يا شيخ طلبه... انت؟... دا انت بلوه مسيّحة... دا انت الشيخطان طلبه» ولو نطق بهذه النكتة أحد أياً كان مركزه في البلدة لبصق «الشيخ طلبه» في وجهه ولخرجت نبابيت العكايشه تطلب الثأر والدمار، أما وقد قالها «عمي درويش» فإن عمي الشيخ يحمرّ وجهه خجلاً ويعضّ على نواجذه ضاحكاً بعمق بهيج، حينئذ يراقبه «عمي درويش» ضاحكاً بعمق هو الآخر ولكن دون صوت، فقط ينتفش شاربه الكثيف وتتسع خدوده وتختفي عيناه تحت كرمشات باسمة، ثم ما يلبث أن يقول معلّقاً: «يعني انت من ناحية والست حرمك من ناحية»، فبمجرد أن يقول «حرمك» ترنّ في الدار أصداء ضاحكة أطلقتها أصوات كثيرة مجهولة في الدار، لعلها أصداء الضحكة التي أطلقها نسوان الدار ذات يوم بعيد حين أبدى «عمي درويش» هذه الملاحظة لأول مرة ثم كتمنها فجأة حين صرخ فيهن أن يتحشمن.

وكان يحلو لي أن أقلّد «عمي درويش» في كل شيء، فأصيح صيحته وأرسم تكشيرته وأهز هزّة عصاه وأشوح بيدي عند الحديث، وأهبّ في الأولاد بالعصا لأفضّ خناقتهم المفتعلة من قبيل اللعب. ويبدو أنني كنت أقرب أبناء الدار كلهم شبهاً بعمي درويش في الملامح والطول والصوت... ولكن ليس هذا ما جعل «عمي درويش» يتحيّز لي ويجلسني بجواره ويشتري لي الحلوى كلما صادفته في أحد الدكاكين. والمؤكد أن اصطفاء «عمي درويش» لي قد جلب عليّ حب الدار كلها لدرجة أنني كنت الوحيد الذي لا يوقع عليه عقاب لأي خطأ أتاه رغم شقاوتي التي يضرب بها المثل في نطاق عائلتنا التي تشغل حارة



بأكملها. وهم رغم استيائهم من شقاوتي وتنديدهم بها أمام كل ضيف وفي كل لحظة صفاء فانهم يذكرون ما يسمونه بنوادري التي يتسامرون بها جميعاً كل واحد يتفنن في إعادة صياغتها بشكل خاص حتى يجلب المزيد من الضحك، فلا أعرف إن كانوا يمتدحونني أو يسلخونني من ذلك مثلا أن جدي الكبير المرحوم في أواخر أيامه كان شديداً على أهل الدار، وقد نبّه عليهم جميعاً ألا يسهر الواحد منهم خارج الدار بعد صلاة العشاء وإن تأخر أحدهم ـ بما فيهم عمي طلبه ـ فسوف لن يبيت في الدار فضلاً عن أنه «سيأكلها» بالنبوت وربما بالبلغة كل حسب قدره، ثم صمت برهة واستدرك قائلاً «هذا طبعاً لا يشمل عمكم درويش» وكنا نظنها مجرد نكتة، والمؤكّد أن جدّي كان يعتبرها كذلك، لكن «الحاجة تعلبه» حوّلتها إلى حقيقة، وبواسطة «عمي درويش» تم تنفيذ كل ذلك بدقة. وقد حدث أن سرحت وراء فرح يجوب البلدة بطبوله وزموره، وظللت ألفّ وراءه حتى ساعة متأخرة من الليل، وعدت مع رهط من أبناء العائلة لا يشملهم قرار دارنا. طرقت الباب بواسطة مقبض نحاس مثبت على البوابة، وإذا بصوت جدي يصيح من خلف البوابة مباشرة حيث ينام على الدوام: «مين اللي بيخبط؟»، وكأن في صوته عداء ورهبة، فتذكرت قراره، فارتعدت وتلعثمت، فبقي صامتاً لبرهة طويلة، فطرقت من جديد، فصاح بصوت جهوري: «مين» قلت بخوف ووجل: «أنا» قال بشخطه: «انت مين؟»، قلت بسرعة وتلقائية مسرسعة: «أنا... أنا... أنا أبويا درويش»، فانفجرت ضحكة جدي داوية وفتح البابا قائلاً: «طب ادخل يا أبوك درويش» فدفعت نفسي منسلا، فلسعني بطرف العصا فوق مؤخرتي وهو يواصل الضحك، وفي الصباح راح يحكي ما



حدث كلما التقى أحدا، ولم تمت هذه الحكاية أبداً...

إلا أنني لم أكن أدرك أيامها أن سر عطفهم جميعاً عليّ وتمييزهم لي في المعاملة هو أنني ابن لإحدى سيدات هذه الدار هي على التحديد «عمتي بهية» فكيف تكون هي أمي وهي عمتي؟ لقد كانت عمتي بهية ـ أقصد أمي «بهية» قد تزوجت من ابن عم لها مات في عز شبابه بعد أن أنجبني، وكانت أمي تحبه حباً شديداً، فانتقلت إلى دار أهلها رافضة الزواج من أحد حتى تربيني، ولست أذكر بيت أبي في دار مجاورة لدارنا، فلقد تفتّحت عيناي على هذه الدار المحتشدة بعشرات من الأطفال الصغار مثلي أو أكبر قليلاً يرتعون وينادون أهل الدار كلهم بلقب واحد هو يا عمي أو يا عمتي، فصرت مثلهم أنادي على أمي قائلاً يا عمتي.

وكانت «الحاجة فاطمة تعلبه» تحب أمي هذه وتصطحبها معها إلى الحجاز بين حجة وأخرى، ومن كثرة ما حجت وتعهدت بالسلوك السوي بدا كأنها تكاد تقترب في العمر من أمها «تعلبه». أما عمتي الثانية «بسيمه» فهي آخر بطن أنجبتها الحاجة «تعلبه» منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً أو يزيد، وهي ـ عمتي بسيمة ـ بيضاء الوجه لكنها ذات طابع رجولي، وقريبة الشبه بعمي درويش في الطول والخشونة والصوت وأشياء كثيرة تبدو عظيمة بل وجميلة في «عمي درويش»، ولكنها في «عمتي بسيمة» قد عطلتها عن الزواج كل هذه السنين، ومع ذلك لا تريد أن تنزل عن كبريائها وتهتم بنفسها كأنثى... وها هي ذي تراقب «سميحة» بنت الكاشف وهي تدعك قدمي «الحاجة تعلبه» بالمياه الساخنة المملحة، وتتفرج على جسد «سميحة» وهو ينتفض ويتفجر أنوثة فتكاد تغازلها كما الرجال...

النسوان جميعاً يضحكن في سرّهن ولا يعلّقن بكلمة على النشاط الذي تبديه «سميحة» تجاه حماتها، لكن نظراتهن ـ التي لم تحمل في حياتها وداً إلا في هذه اللحظة ـ تقول أن المفعوصة لن تلبث أن تفقد حيويتها بعد زمن يقصر أو يطول مثلما فقدن، وأنهن سوف يتفرجن حينما تنقلب عليها «الحاجة تعلبه» وتسقيها المرّ مثلما سقتهنّ...

زينب ومريم وسكينة وبهانة وهاتم وبهية وعزيزة وبسمية لا يردن الاعتراف بأن «سميحة» بنت الكاشف صبية لا تزال في سن أبنائهن. وأنها زوجة «الشيخ طلبه» صاحب المعزة، وأنها تبعاً لهذا وذاك يجب أن تحظى بشيء من الحنية ولو من باب المجاملة على الأقل باعتبارها عروس جديدة، إنما هي في نظرهنّ امرأة وكفى، امرأة مثلهنّ ومثلهن خضعت لاختبارات قاسية وجارحة قبل أن تجيء إلى هذه الدار زوجة لأحد أبنائها، حيث ذهبت «الحاجة فاطمة تعلبه» إلى بيت أهلها، فعرّتها من ثيابها وكشفت عليها جزءاً جزءاً، واعترضت على بعض الأجزاء من عدم جمال أو تناسق، ورضيت كما ترضى دائماً على ذمّة المقولة الشهيرة: «الحلو ما بيكملش»، إلا أنها تكون قد اقتنعت أن النقص في أجزاء يعوضه الفائض في أجزاء أخرى، وذهب وفد من «العكايشه» يقودهم «عمي درويش» فأكلوا من طبيخ يدها أكثر من مرة، وقيل أنها لا تجيد تنظيف «أم الشلاتيت» ـ أي أحشاء الذبائح من مصارين وعفشه وكرشه وما إلى ذلك ـ فذهب وفد نسائي من عائلة «الثعالبه» وشاهدن سميحة وهي تنظف «أم الشلاتيت» أمامهن، ومع ذلك ظلت «الحاجة تعلبه» تؤجل وتماطل حتى هام «الشيخ طلبه» وساق عليها «عمي درويش» فرضيت، وجيء بالمفعوصة لتأكل بعقل الولية حلاوة...

إن في هذا خطر، فعن طريقها يركب الشيخ أكثر مما هو راكب، إنه «طلبه» والأجر على اللّه، ناعم، مؤدّب، يشقّ الهدوم كلما صاحت أمه بأهة صغيرة، ولا بد أنه يمكن أن يمسك المصروف في يده لكن لا... إنه وزوجته يتعشمان عشم إبليس في الجنة. ينفرط عقد النسوان بعد أن يشبعن من الودودة أمام وسعاية الفرن في «الدويرة» الملحقة بالدار منفصلة عنها متصلة بها. في تلك اللحظة تكون «سميحة» قد بدأت تتلقى الشتائم نيابة عن مريم ـ الكلبة بنت الكلب ـ التي كان اليوم يومها في شغل الدار، ومن بين الأعمال التي ينبغي أن تؤديها يوم خدمتها دعك قدمي الحاجة تعلبه ساعة أو ساعتين في مطلع النهار...

ـ أمال بنت أم صفيحة ماجاتش ليه عشان تدعك لي رجلي... هـمـا حيضـدروكي في كل حـاجـة؟... ثم تتثاءب. فتقول «سميحة» وهي تخشى أن يفتضح كذبها:

ـ لازم تـحـنن البـهـايم... أصـل البـهـايـم بتتعب في الـحليب الصبح...

هنا تكون مريم قد تقرفصت فوق الأرض فاشخة وركيها في لا مبالاة أبيحت لها بحكم عمرها الطويل في دار العكايشه، فهي زوجة أكبر الرجال، وقد تهدّل جسدها وانهدّ كيانها في خدمة هذه الدار وإعطائها عشرة من الولدان صبياناً وبنات. زحفت بأليتيها فوق الأرض ممسكة بالمقشة المصنوعة من قحف الجريد، لكنها عند باب قاعة الحاجة تعلبه تتمهل وتستعيض بيديها عن المقشة في كنس التراب حتى لا تصدر صـوتـاً يكشف عـن وجودهـا، وهـي تريد أن تسمـع جيـداً، ولسوف تجعل نهار الحاجة أسود إذا لم تمسك لسانها عنها. أصاخت السمع جيداً في اتجاه الباب، تقول «الحاجة تعلبه» ويدها لا تكف عن مشاغبة المسبحة:

ـ زهقت واللّه يا بنتي من هذه الوليّة... أكثر من ثلاثين عام وهي تناكفني بلا فائدة. آه لو لم تكن زوجة لأعزّ الرجال... البنت «سميحة» دائمة النظر في فرجة الباب. لمحت خيال «مريم» متقرفصاً يزحف على صدغ الباب وهو ما لم تفطن إليه «مريم» فغمزت «سميحة» بفمها للحاجة «تعلبه» مشيرة إلى الخيال، فتأوهت «الحاجة تعلبه» بنبرة المرض العضال:

ـ آه... لم يعد أحد في هذه الدار يرحمني... لقد تعبت وآن لي أن أستريح.

تحس «مريم» بشعور الانتصار تأخذها من قصيره وتبتعد شيئاً فشيئاً ثم لما تتأكد أن «الحاجة تعلبه» لن تأتي بسيرتها ثانية تلتقط المقشة وتعلن عن وجودها مؤجّلة كالعادة ثورتها إلى لحظة مناسبة، صحيح أن هذه اللحظة المناسبة لم ولن تجيء أبداً. ولكن ثمة شعور باقتراب الخلاص يرقد في قعر بطنها كلما تقدمت صحة «الحاجة تعلبه» في الوهن والمرض، فـمـن غـيـرك يا مـريم يصلـح بعدها لادارة الدار؟ وقد تقفز شخصية «عمتي بهية» إلى ذهنها وقد تربعت على السرير بعد موت «تعلبه»، وقد تطغي عليها صورة «عمي درويش» تعشمها في سيادة على حسه مقبله، على أنها فجأة تنفض المقشة في الأرض بغضب مكتوم لاعنة العيشة واللي عايشينها، ثم تستند على الحائط متقرفصة واضعة كفها على خدها. ثم تنساب دموعها مختلطة بمخاطها... فأعرف أنها يئست من الانتصار عـلـى «الـحـاجـة تـعـلـبـه» يأسـاً نـهـائيـاً، ذلك أن زوجـهـا «عمي درويش» بجلالة قدره، الذي ينحني له أتخن جعيص في البلد، ولا يمر عليه راكب إلا وترجّل حتى لو كان العمدة نفسه، والذي، على يديه تقام أعتى سرادقات الأفراح وأجلّ المآتم، وبكلمة منه تنفضّ أعقد المشكلات، هو نفسه ينحني للحاجة تعلبه ويقبّل يدها ويخاطبها بلهجة الصغير حين يقول: يا امه، أما حين يجيء بسيرتها لدى الآخرين فإنه يقول: الحاجة... فيعرف الجميع إنه يقصد «الحاجة فاطمة تعلبه»...

و«مريم» زوجة «عمي درويش» تمت إلينا بصلة قربى وثيقة، إذ هي من فرع «العكايشة» الذي تتكون منه بلدة كاملة على مسيرة ساعتين بالحمار من بلدتنا. وكثيراً ما نشب الخلاف بينها وبين «الحاجة تعلبه» أدّى إلى الشروع في الغضب والسفر إلى أهلها، لكنها سرعان ما تهدأ بمجرد أن يشخط فيها «عمي درويش»، أما إن طوّلت في الكلام فإنه يصفعها بالكف على وجهها، وإن تزربن فإنه ينهال عليها بحقف الجريد أو بعصاه إذا لم تحترم أمه وتكسر عينها أمامها، فتذهب «مريم» إلى غرفتها محطمة، ولكنها في الصباح تخرج من القاعة كشجرة جمّيز مغسولة بمياه المطر، ولا أثر لما حدث عليها، والمؤكد أن «عمي درويش» كان يسقيها في الليل مفعولاً سحرياً يساعدها على الهدوء والخضوع...

أما «زينب» زوجة «عمي عبد العزيز» فإنها مهياصة كبيرة، معاهم معاهم عليهم عليهم هي الأخرى قريبة لنا ومن نفس الحارة ربّتها «تعلبه» على يديها من الصغر، بل وخطبتها لعمي وهي طفلة غريرة، فكانت بحكم اتصالها بالدار تفهم «الحاجة فاطمة تعلبه» حق الفهم، فلا ترد عليها حين توبخها مهما كان التوبيخ جارحاً صاعقاً، بل تقابل كل ذلك بالضحك الصافي حيث ينعقد الدم تحت خط المنديل أبو أويه وينزرد وجهها المستدير الغليظ الملامح، ويتدفق صوتها المجلجل فيه بحة صوت العكايشة، وينضح وجهها بطيبة قلبهم، و«الحاجة تعلبه» تحب منها كلمة «يا امه» حينما تنطقها بصوتها الأنثوي الـرنـان رغـم بـحّته، فما أن تسمع هـذه اللفظة منها حتى تسامحها فيما ترى أنه خطؤها، تقول لها: «حاكم أنا عارفاكي تلمه ميأثرش فيكي كلام ولا كرباج حتى... داهية تسمّك قليلة الحيا». غير أن في صوتها نبرة مميزة، إذ إنها حين تخاطب «زينب» ـ حتى ولو كانت تشتمها ـ لا تنسى أنها تخاطب واحدة من بنات العائلة، فيحمل صوتها رنة خاصة تفصل بين الغضب والحنان، بين الشتم المقذع والتحفّظ...

يطيب لـ«سكينة» زوجة «عمي عيسى» أن تدخل على هذه الأرض الممهدة، فإذ تحس أن غضب «الحاجة تعلبه» على قريبتها «زينب» سوف يصير إلى جد، تبتسم «سكينة» وتنهض من غرفتها تتبختر في وسط الدار كالأوزة، تلم شعرها المنسابة جدائله تحت منديل مشغول بالفل والترتر، يتضوع منها عطر صابون الوجه المخبأ دوماً في صندوقها الخاص، تدخل بينهما دافعة «زينب» إلى بعيد دفعة حادة مليئة بالعشم قائلة من خلال وجهها الباسم على الدوام: «اختشي بقى وخلي عندك شوية من الأحمر». زينب لا تزعل منها إذ هي خفيفة الدم جداً، وبنت ناس مبسوطين في وسط البلد، وليست تحب الخناق أو الدس أو الوقيعة وإن أحبّت الودودة أمام الفرن، لا أمل لها في هذه الدنيا سوى أن تنجب، ولداً أو بنتاً كل عطية اللّه محبوبة مرغوبة، يحمرّ وجهها كلما جاءت سيرة الخلف، ينصحها نسوان الدار في وسعاية الفرن بأنها يجب أن تذهب إلى الساحر فلان أو العرّافة فلانة لترى لها رأياً في مسألة الخلفة، حينئذ يزداد وجهها احمراراً وخجلاً، ويلمع في عينيها حزن عميق كاب، ربما لاحساسها بأنها مجرد ضيفة على هذه الدار سوف يطلّقها «عمي عيسى» إن عاجلاً أو آجلاً إما برغبته أو برغبتها في سبيل الإنجاب، ذلك



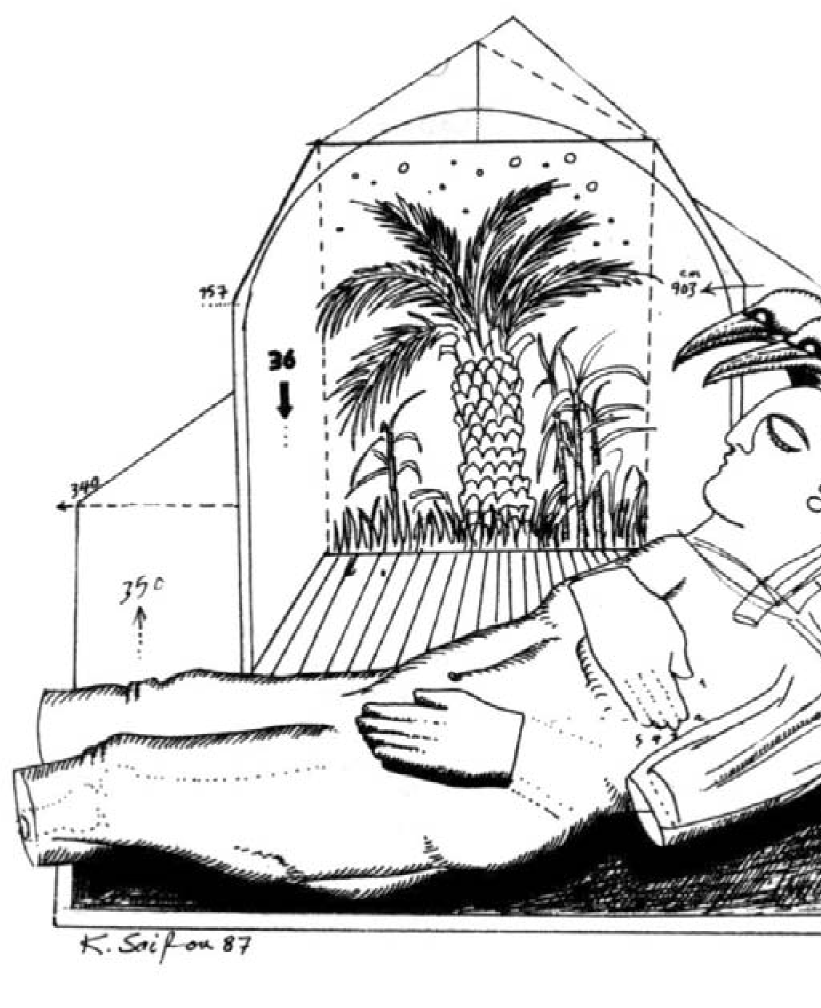
أن «عمي عيسى» كثير الزواج، فسكينة هذه هي زوجته الرابعة، أما الثلاث الأوليات فقد طلقهن واحدة وراء الأخرى لأسباب غامضة تتحدد دائماً في الخلفة كسبب ظاهري. وهو محظوظ جداً في النساء فكل زوجاته كنّ من أجمل جميلات البلد، وليس هناك أحد يتعرض للحسد بسبب النساء مثل «عمي عيسى» وهذا هو تفسيره الخاص لفشل زيجاته، فالقر يخرب البيوت يا جدعان. يلمع الخبث في عيني «عمتي بهية» - أقصد أمي - وهن بارشات أمام الفرن بعد الخبيز - تريد أن تعرف منها ما إذا كان «عمي عيسى» له في النساء حقاً فتستنزل اللعنات على زوجاته السابقة، أم أنه عاجز فتلتمس لهن العذر وله الشفاء. تقول وهي تداري ابتسامتها تحت طرحتها السوداء: «أنا طول الليل سامعة هبد ورزع في القاعة» - ذلك أن قاعتنا مجاورة لقاعة «عمي عيسى» - فتنظر إليها سكينة نظرة ذات معنى يلمح في عينيها ويجبرها على الخروج من الحزن إلى الابتسام الشفيف البهيج: «يعني قصدك إيه يا عمتي؟» فتقول عمتي بهية: «باقول يكون حط همه فيكي ونزل ضرب بدال ما يعمل حاجة تانية ما هو شرز». تهز سكينة كتفيها باسمة: «وحيضربني ليه؟» تقول عمتي بسيمة وقد فهمت قصد أختها: «دي باين عليها مضروبة بصحيح خدودها مورمة أهه... ولا دي باين عليها عضة» تقول «عمتي بهية» في خبث «هو بيضربك يا بت» تقول «سكينة» بهزة من كتفيها: «أيوه بيضربني» غيامة من الحزن تعبر عيني كل من «عمتي بهية» و«عمتي بسيمة»، سرعان ما تنقلب إلى لمعة حقد على «سكينة» ليس له سبب واضح، لكن «سكينة» تستطرد وهي تتعثر في خجلها: «أصل يا اختي تقوليش وحش وانطلق... عايز كل ليلة كل ليلة... لما هدني» تلمع السعادة في عيني «عمتي بهية» و«عمتي بسيمة»، ويلمع بعض الغيظ في عيون الباقيات، وتستطرد سكينة «أنا متهيألي النسوان بتتطلق منه عشان كده مش عشان الخلفة» ترد جوقة النساء كلها دفعة واحدة: «عجايب» فتستدرك سكينة: «بس والخلفة برضه... مش عارفة لها سبب بصراحة... يمكن العيب مننا كلنا» ترد «عمتي بهية» في بجاحة قوية: «جايز ما هي الدنيا مليانة عجايب».

حينئذ ينطلق الصوت فجأة مدوياً كالقنبلة الصاعقة: «لا إله إلا الله... سيدنا محمد رسول الله» فيبصقن جميعاً في عبهنّ رغم أن «الحاجة تعلبه» تفاجئهن بهذه الصيحة من حين إلى حين فيهتزّ منها حتى السائرون في الشارع العمومي ويردّون الصيحة خلفها ولكن في بسبسة خاشعة متفائلة. ثم تكفّ أصواتهنّ عن اللغو، وتنهض كل إلى عمل معروف لها سلفاً... الوحيدة التي تضيق بانقطاع هذا الحديث هي «بهانة» زوجة «عمي طاهر»، الرفيعة المسلوعة، المربربة، الشاحبة الوجه باستمرار شحوباً مثيراً للخيال، الحريصة على دعك كعبيها بقطعة من الطوب الأحمر، تترك نفسها دائماً بلا شال أو طرحة كأنها لا تزال فتاة صغيرة رغم ما أنجبته من أولاد كثار مسمسمي الوجوه مثلها، ذوي أحجام محندقة وملامح غريبة بعض الشيء عن ملامح العكايشة، وإن حملت نفس الدماء ونفس الطبيعة الميّاله لفرض السيطرة أو العراك بلا سبب، ولا تفسير له في نظر أهل البلدة إلا أنه من قبيل هبل العكايشة كما يقولون في خلواتهم. و«بهانة» ولوعة بحديث النسوان عن الجنس، وتدبّ فيها حيوية غريبة وتجري الدماء تحت الشحوب، ومن كثرة انفعالها لا تكفّ عن الحركة حتى وهي جالسة. يحبها الجميع من أعماق قلوبهنّ لكنهن يتناسين هذا الحب كلما تذكرن أن «الحاجة تعلبه» تعزّها أكثر منهن، ذلك أنها - بهانة - كالدبور، ومثل زوجها منوطة بأعمال الخدمة العامة، ليس بتكليف من أحد إنما هكذا درجت الأمور بالنسبة لها منذ تزوجت من «عمي طاهر»، وهي بنت رجل كان تقياً ورعاً يمتّ بصلة قربى «للحاجة تعلبه» ولذلك أعفيت من قسوة الاختبار وإن لم تعف منه تماماً، كانت ترافق أباها على الدوام حتى عند طلوعه الحجاز إذ لم يكن قد أنجب سواها، وعند مروره على بيوت الأعيان ليقرأ رواتب السور القرآنية في مكان ما من الدار يحدده له صاحبها. وعلى الرغم من أنها استحقت لقب الحاجة عدة مرات فإنها لم تحمله أبداً، ربما لخوفها من أن يضفي عليها كبراً في السن، أو يقيّدها في حركتها، أو يلزمها بالصلاة التي لا تجد لها وقتاً أبداً، لكنها كثيراً ما تستدر اللقب عند احتياجها له للدفاع عن كذبة أو خطأ أو شيء اضطرت لنفيه عن نفسها، حينئذ فقط تصيح بصوت يحاول جاهداً إخفاء نبرات الأنوثة الصارخة فيه: «وحياة اللّي زرته وحطيت إيدي على شباكه ماحصل... مش عيب؟». لا أحد يستطيع أن يشتمها أو يجرحها بكلمة لأنها لا تعطي لأحد فرصة لذلك، فهي تقوم بعبء كبير دون تململ أو ضيق. فمن مهمتها مثلاً تلصيق الجلة في أقراص بعد جمعها من الزريبة والحارة، ونقل أحمال الحمية من حطب ودريس وقش أرز وأعواد ذره، حيث يبرك الجمل أمام الدار وينفك حمله، ففي دقائق معدودة تكون قد نقلته ورتبته فوق السطح، وغسيل ملابس «الحاجة تعلبه» وتطليع فراشها للشمس. وكل طيور الدار لا تعشق سواها، ومن المألوف أن تكون سائرة في وسط الدار ووراءها جوقة هائلة من الدجاج والأوز والبط والأرانب الرومي تطلق سمفونية من الأصوات يزداد ارتفاع ضجيجها كلما همّت «بهانة» برفع يدها كأنما يتوقعون أن تبذر لهم الحَبَّ كالعادة، ولذا فهي خبيرة بالطيور، وبإمساك أي طائر في لمح البصر، خبيرة أيضاً في تزغيط البط أو الأوز المرشّح للذبح في المواسم والأعياد وأيام الأسواق باعتبارها أياماً مفترجة، إذ تصنع عجينة من الردة والشعير وبقايا الطعام تجعلها أصابع كالكفتة تنشفها ثم تعود فتغمسها في الماء وقد نيمت البطة تحت فخذها الذي يبدو في هذه اللحظة أضخم وأجمل مما يبدو وهي واقفة أو سائرة، ممسكة بعنق البطة فاتحة فمها لتحشر فيه الأصبع وراء الآخر وتضغط بأطراف أصابعها برفق على رقبة البطة ليتزحزح الأصبع ويسقط في البطن، وبين الأصبع والأصبع بعض قطرات مياه...

حاول «عمي طاهر» مرة أن ينبه عليها بأنها بخفتها هذه وعدم تحشمها في اللبس قد يطمع فيها الناس فيعاكسونها، فنهره «عمي درويش» بنظرة نارية لاسعة، وأمسكته «الحاجة تعلبه» من أذنه وفركتها بقسوة وهي تزأر فيه:

- لا أحد في هذه البلدة كلها يجرؤ على معاكسة امرأة متزوجة من ابن الحاجة تعلبه وشقيق الحاج درويش... اللهم إلا أن تكون هي التي تجلب المعاكسة... وليس هذا، الشر بره وبعيد، من طبيعة بهانة... إنها خسارة في عضمك.

فمن يومها لم يفتح فمه بملاحظة عليها. مع ذلك فحين تغضب منها «الحاجة تعلبه» لسبب من الأسباب فإنها تسبها صائحة:



ـ آه يامره ياللي معندكيش خشا ولا وقار... ياللي عمرك ما تعرفي الحشمة... يا صفره يا مسلوعه... يا ريتني كنت صدغت وشك بالشبشب بدال ما ألبسك طرحة الفرح.

فحينئذ تقبع «بهانه» في ركن من قاعتها تنتفض كعصفور بلّله المطر، ثم تمسح عن خديها دمعتين متطفلتين، وتنهض صاعدة إلى السطح كأنما لتدفن حزنها في شغل لا ينتهي.

حينئذ تتقدم «هانم» زوجة «عمي صادق» لتهدئ من غضب «الحاجة تعلبه» ذلك أن هانم أكثر نسوان الدار حباً لبهانه وفهماً لشخصية الحاجة، تريد أن تضرب عصفورين بحجر: تسكت الشتائم عن صديقتها وترضي مشاعر الحاجة: «روّقي دمك بس يا امه» تقولها «هانم» وهي تدخل القاعة ثم تجلس بجوار حماتها متسائلة: «ايه بس اللي مزعلك؟». يتضح أن الأمر في غاية العجب: «لقد أبلغتها «بهانه» أن طواجن اللبن في الحاصل فوق السطح بلغت عشرة، منها ستة من اللبن الرائب والباقي طازج، فلما صعدت «تعلبه» لتتولى بنفسها الاشراف على عملية عزل القشدة عن الرائب وإعداد طريحتين أو ثلاث من خرط الجبن القريش وجدت عدد الطواجن تسعة فقط، فتساءلت فزعمت «بهانة» أن الطاجن العاشر شربه الأولاد في الصباح، فاستدعت «تعلبه» كافة الأولاد ولفت بهم لتعرف بطريق غير مباشر إن كانوا قد شربوا في الصباح لبناً أم أفطروا بالجبن فقط، فاتضح لها أن الأولاد لم يشربوا لبناً هذا الصباح، فجنّت «تعلبه» وطقست وسألت النسوان واحدة واحدة عن مصير طاجن اللبن الذي خرج من العدد المرصود. فشهدت «سميحة» بنت الكاشف أنها شاهدت الطاجن يندلق من «بهانه» غصباً عنها، فلماذا تكذب عليها «بهانه»؟ هل هي علمتها هذا؟ هل الكذب من شيمة أهل هذه الدار؟ وكيف باللّه لمن زار النبي وملس على شبّاكه مثلها أن يكذب؟ إنها ملعونة وسوف يقسم الله ظهرها باذن الله. إن الحج ليس لعبة، إنه عهد، ولهذا فليس من الصواب أن يتجرّأ عليه المفاعيص أمثالها ممن لا يفهمون عهد الله والرسول.

توافقها «هانم» على كل ما تقول، مردّدة مع كل هزّة رأس: «طبعاً يا ست الحاجة طبعاً». فتعاجلها حماتها: «طابت وانهرت»، ثم تشوح بيدها مستأنفة التسبيح بالمسبحة، ثم تهدأ قليلاً وتكور المسبحة في حجرها كأنما تنتبه إلى وجود هانم لأول مرة، تربت على كتفها: «ازيك يا بنتي عامله ايه؟» فترد هانم: «بخير يا ست الحاجة الحمد لله». فتنبري الحاجة ـ دون مناسبة ـ تحكي لها عن نساء عشن بعيداً عن أزواجهنّ سنوات طوالاً فلم يفرطن في عفّتهنّ، حكايات سمعتها بعد ذلك في ألف ليلة وليلة وغيرها من المصادر الشفاهية، عن نساء حمين أنفسهن فكافأتهنّ السماء أعظم مكافأة بطلوع الحجاز والسعة في الرزق والبركة في الأولاد. فيقشعر بدن «هانم» وتردّد: «أوعدنا يا رب» ثم تندمج في قراءة بعض آيات أغلب الظن أنها آية الكرسي، ثم تملس على وجهها المستطيل الذي ينطق بالشوق والبراءة والاحساس بفقد شيء ما أو بتوقع شيء ما غير سار. وتعرف «الحاجة تعلبه» أن «هانم» مستمعة جيدة، ربما كانت الوحيدة من بين نسوان الدار مستعدة للسمر والاستماع في انتباه إلى ما لا نهاية، دون أن تعترض على شيء أو تستوثق من صحة شيء. ثم إنها ونيس لا مثيل له، إذا طلب منها الحديث تحدثت عن أشياء لا رابط بينها لكنها مثيرة للإحساس بالنبل دافعة إلى الضحك مع ذلك، عن عفريت قابلها ذات فجر كاذب وهي تملأ البلاص من الترعة فوقفت له صامدة مسلحة بآية الكرسي، فتخاذل أمامها وصار يلاعبها، فصاحت: «يا سليمان» فاختفى العفريت في الحال ووجدت أمامها رجلاً مقبلاً يجري نحوها صائحاً: «مالك يا ست فيه إيه» فضحكت قائلة إنها كانت تنادي سليمان، فقال لها أنه هو الآخر اسمه سليمان وقد جاءها منقذاً... فعرفت إنه سيدنا سليمان نفسه، والدليل على ذلك إنه ظل سائراً خلفها يحرسها حتى باب الدار وقال لها: «سلّمي على الحاجة تعلبه والحاج درويش» فنظرت فلم تجده. وإذ يبدو عدم التصديق في عيون النسوان تزأر فيهن «تعلبه» صائحة:

ـ ويخلق ما لا تعلمون... لماذا لا يكون سيدنا سليمان... وعلى كل حال ما دام قال لها سلّمي لي على الحاجة وعلى درويش فإنه يكون سيدنا سليمان. هو بعينه. ما دام غير معروف بشخصه لهانم وما دامت لم تره من قبل ولا تعرف له شبهاً في البلد... إنه هو إذن... إنني لا أكف عن ذكر اللّه وقراءة آياته ولا بد أنه يعرف ذلك ويرسل لي السلام من أجله.

فعليهنّ جميعاً أن يصدّقن في الحال ما قالت، حتى «مريم» تهز رأسها صائحة من وسط الدار قبالتهن: «كلك خير وبركة يا حاجة». فتعوج الحاجة رأسها تجاه الباب صائحة في غير ود وإن ظهر في صوتها الود المبالغ فيه:

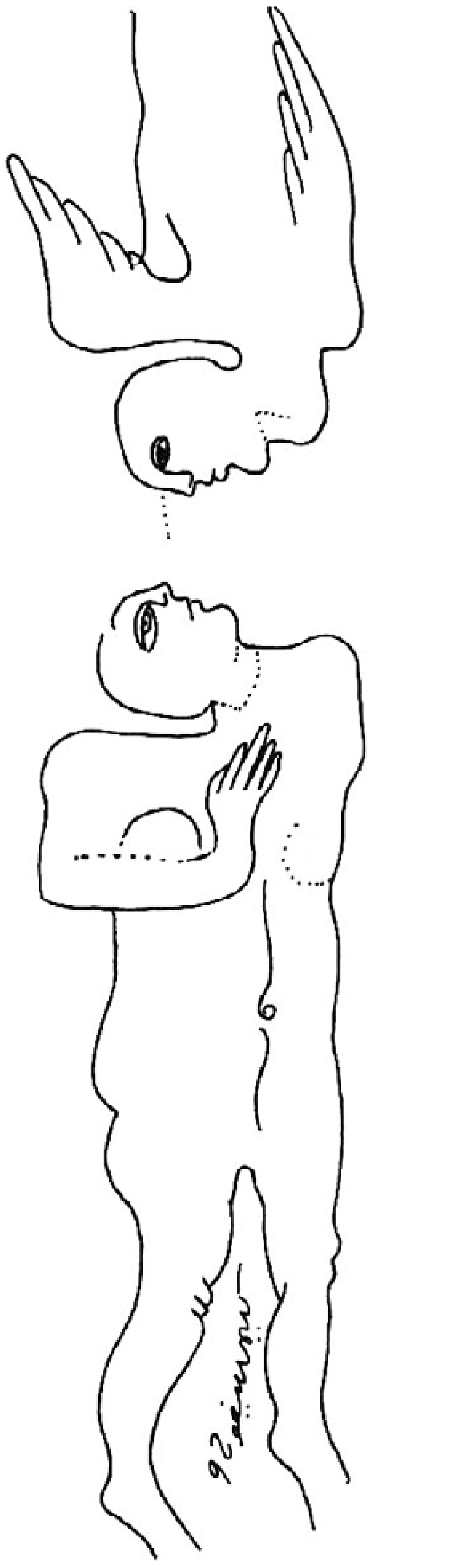
ـ غصبن عنك يا بت... إياك يطمر فيكم... لولايا كانت الدنيا اتفرجت عليكم...

وتتأهب «مريم» لتفتح فمها بأي رد قد يخطر على بالها. لكن «هانم» التي تكون على طرف المصطبة في مواجهتها تغمز لها بشفتيها أن تصمت وتقصر الشر، وتربت بكفها على صدرها بما يعني: علشان خاطري. فتغلق «مريم» فمها، وتدك المشط العظم المربع في شعرها الكثيف المتلبد وتشدّه مرات ومرات في عنف ليتساقط القمل في حجرها المفرود، ثم تسارع بظفر ابهامها فتسحق القمل المتناثر على أسنان المشط فيطرقع في تتابع سريع مدرب، ثم تجمع ما في حجرها وتدعه يتسلق المشط لتسحقه كذلك في عنف شديد...

ـ خدتي بالك بقى يا بنتي...

هكذا تستأنف «تعلبه» حكاياتها كأن شيئاً لم يكن. فتقول هانم: «أيوه يا ست الحاجة». فتحكي لها عن رجال تجار مثل إبنها صادق يجوبون الأسواق ويتحملون الشقاء، وكيف انتهزت زوجاتهم فرصة غيابهم فسرن على حلّ شعرهنّ فكانت فضائحهن مضرب الأمثال، وكيف عوض الله الرجال الشقيانين نساء أطهاراً وأبكاراً في حين منيت السابقات بسوء العاقبة. تؤمّن «هانم» على صدق كلام حماتها مبدية دهشتها من مثل هاتيك النساء نجسات الذيل ناقصات الدين.

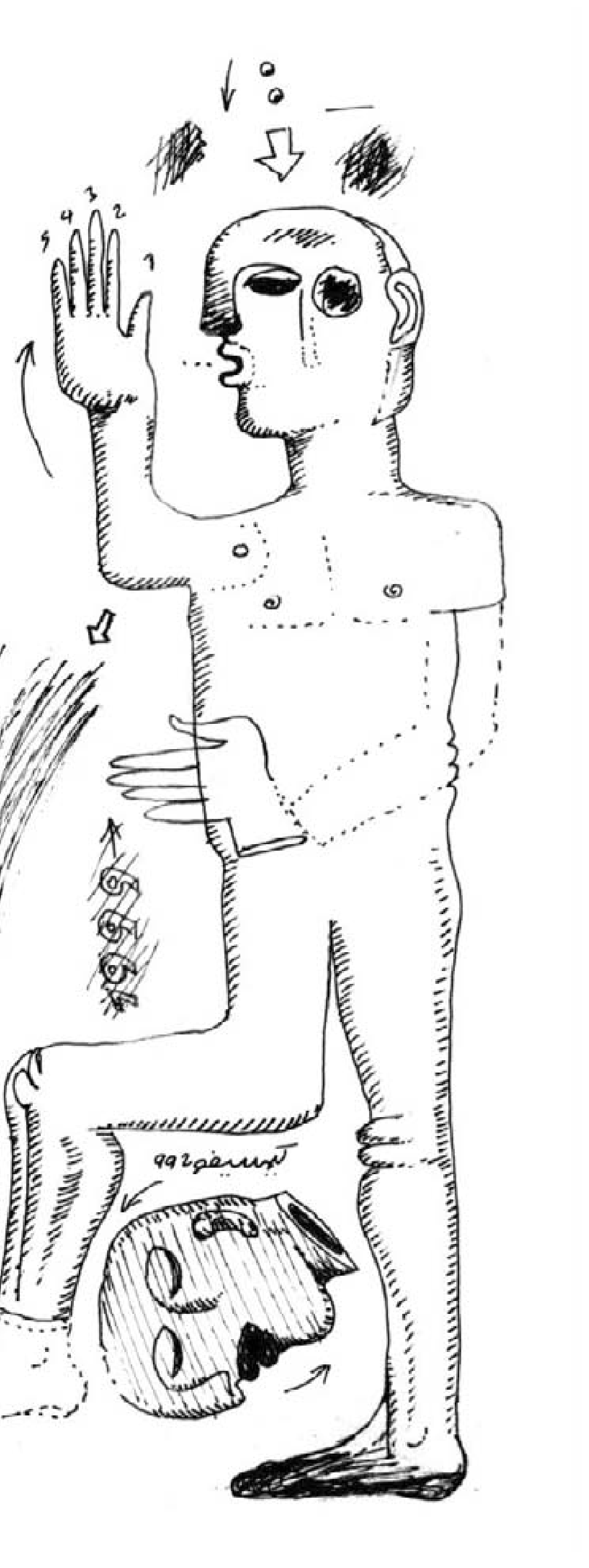
فهانم، كما هو معروف، هي الابنة الوحيدة ـ على ذكور كثار ـ لأحد الخياطين في البلدة، يفصل الثياب لعلية القوم، ولما كان المثل الشعبي يقول: «أجرة الخياط تحت مؤخرته»، ومعناه أنه يجلس فوق ثياب الزبائن بعد حياكتها ليكويها ومن ثم لن تخرج من تحت مؤخرته إلا بعد دفع أجرته، فإنه قد جمع ثروة كبيرة وصار بدوره من الأعيان، وحمى نفسه بحج بيت اللّه حتى تزداد ثقة الناس فيه، وهو قصير القامة نظيف الثياب على الدوام، يرتدي فوق الجلباب قطنية من الشاهي اللامع، ويسمح له بزيارة البيوت والاختلاط بالنساء لتفصيل ثياب العرائس، ويقيس الأبدان بتحفظ شديد حتى لا تلامس أصابعه جسد المرأة متجنباً ما يمكن أن يبدو بذيئاً من حركات القياس، يبدأ كل شيء ببسم اللّه الرحمن الرحيم

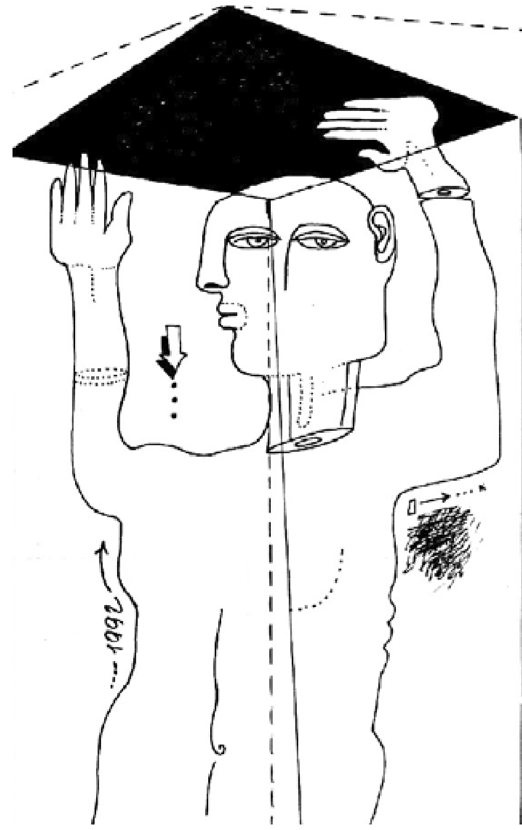


سابلاً جفنيه على عينيه مستعيذاً باللّه من الشيطان الرجيم قبل البسملة وبعدها، ويحك موضع القياس في جبينه ليلوثه بالعرق كعلامة يقص عندها، وهو بارع في خرط الثياب وحبكها وجعلها كالكعكة منضبطة فوق صاحبها. وقد أنجب سبعة رجال وفتاة واحدة هي «هانم»، فعمل على تحفيظها القرآن وتعليمها الصلاة. ومنذ طفولتها حتى صباها وهو يحرص على اصطحابها معه عند زيارته لأي عروس في بيتها لأخذ المقاس أو للتأكد من صحته لكي يدرأ عن نفسه الشبهات ويحرس نفسه بها خوفاً من غواية الشيطان. وكانت في صحبته يوم جاء ليفصل ثياب «زينب» زوجة «عمي عبد العزيز» حينما كانت عروساً، فسلطت عليها «تعلبه» عيونها، وتعقبتها بعد ذلك، سألت عليها جميع الدور التي دخلتها مع أبيها فأطنب الجميع في ذكر محاسنها واعتدال سلوكها وحسن أخلاقها: «محفضة قطة مغمضة» ولم تكتف بذلك، فأرسلت من بنات العكايشة ومن نساء الثعالبه من يتجسس ويتسقّط أخبارها الخفية، فجاءت الاخباريات كلها تفيد بأن «هانم لا ضريب لها بين البنات، فأرسلت الحاجة وفداً من نساء الثعالبة بينهن إحدى الماشطات كشفن بصنعة لطافة على جسد الفتاة، عن طريق تسليط بنات في مثل سنها يتعرّين أمام بعضهن البعض ويَرَيْن بعضهنّ البعض بالاستحمام سوية حتى ينكشف المستور من الجسد... فجاء كل ذلك مبهجاً للخاطر. فذهبت «الحاجة تعلبه» بنفسها كزائرة تحمل بعض الهدايا لأبيها مفصل ثياب العائلة، ثم طلبت البنت للجلوس بجوارها، وصارت تتحسسها قطعة قطعة بحجة أنها ترقيها من عين الحسود، فلما اطمأنت إلى سلامة اللحم وحلاوته وطهارته شرعت تلمّح إلى المستقبل الهنيء الذي ينتظر البنيّة بإذن اللّه، ثم انصرفت ليجيء الدور على «عمي درويش» ليقوم بمهمته...

مَن ليس له كبير يشتري له كبيراً، هكذا يقول المثل الشائع على ألسنة الناس في بلدتنا و«عمي درويش» ليس فقط كبيرنا بل هو كبير مشاع، يشتريه معظم الناس ليكون كبيراً لهم، فلا يخيب ظنهم أبداً، ليس يشترونه بالنقود لا سمح اللّه، إنما يشترونه بالود والصداقة والثقة والاحترام والتوقير. فالعريس الذي يذهب «عمي درويش» ليخطب له لن تتعثر خطوبته مطلقاً ولن تكون ثمة مشكلة على الاطلاق، ذلك أن «عمي درويش» لديه قدرة عظيمة على إقناع الأطراف كلها بأن معرفة الناس هي الكنز الحقيقي الذي لا يدانيه كنز، والناس لبعضهم، والرسول قال، وسيدنا عمر بن الخطاب فعل، والإمام الشافعي فسّر، وهكذا يتم على يديه تجنيب أي مشاكل مادية أو خلافات انسانية أو عداوات قديمة. إن الناس في صحبة «عمي درويش» يحسّون بأنهم كبراء حقاً، بأنهم ذوو قامات مرتفعة. فإن يطرق «عمي درويش» بابك لأي سبب من الأسباب فهذا شرف كبير، فما بالك لو طلب الدخول، وما فرحتك لو كان زائرك لوقت، يخرج من خزين الدار كل مدخر، تخرج الفناجين الصيني والأطباق والصواني المحفوظة في لفائف، وتصيح الطيور الذبيحة في وسط الدار معلنة عظيم فرحتها بكونها تُذبح على شرفه. وسواء كنت من علية القوم أم من الأنفار الشغيله فانه يناديك بيا سي فلان، أو يا عم، أو يا مولانا، أو يا فضيلة الشيخ. وصوته جهوري منطلق عظيم الثقة، والكلمات تتصاعد مهذبة مليئة بالخبرات والأحاسيس والمعاني لا تجد بينها لفظاً واحداً نابياً وفصحى عالية المقام من آيات وأحاديث وأقوال صحابة ومريدين وأقطاب تصوّف، وأحياناً قصيدة شعر لابراهيم الدسوقي أو موال أو رباعية لابن عروس. وإن هي إلا دقائق حتى تصيبك عدوى الثقة والاحترام فتحس أنك رجل وأنك ذو قيمة عالية، ويجيئك إحساس مفاجئ بالغضب على من هزأوك ذات يوم أو استهانوا بشأنك، تراك وقد نبذتهم وقررت الارتفاع عليهم، ثم إنك تجد نفسك فجأة على غير ما كنت تتصور نفسك، فحيث يكون قد وقر في ذهنك إنك ضعيف الشأن لا تصلح لمجالسة الكبار، إذا بك تكتشف أنك بخير، وأنك يمكن أن تكون ناضجاً في تصرفاتك وأقوالك، وأول دليل تريد أن تقدمه لنفسك على ذلك هو النزول على رغبة «عمي درويش» التي يرفع بها الرجال ويخفضهم عند اللزوم دون كثير كلام، حقاً إن معاشرة الكبار كبر ومعاشرة الصغار صغر...

سحب «عمي درويش» جلبابه الكشمير الكحلي الغامق ذا الخطوط الرفيعة المبيضة قليلاً فلبسه فوق الصديري الشاهي، ثم لبس المركوب البني بدون جورب، وسحب العباءة الجوخ المغسولة بمياه زمزم، طرحها على كتفيه، ووضع طاقيته الصوف المستطيلة فوق رأسه ثم تعمم فوقها بشال سمني اللون شديد النظافة قادم من الحجاز، وشبك كتينة الساعة في عروة الصديري ووضع الساعة في جيبها الصغير تحت الأبط، وسحب عصاه الشهيرة التي لا تفارقه، وتقدم خارجاً من قاعته، فكأن موكب الدنيا قد أذن بالتحرك، وما أن يقبل طيفه أو خياله نحو مصطبة وسط الدار حتى ينهض الجالسون واقفين، فيشير إليهم فيتفضلوا بالسير خلفه إلى الخلاء حيث ينتظم خطواتهم إيقاع من المهابة، وهو موكب تعوّد كل أهل البلدة إن رآه أحدهم في أي شارع استعد لرد التحية ودعا لهم أن يوفقهم الله في مشوارهم حتى لو لم يكن يعرف ما هي طبيعة المشوار...





وهـكـذا انـتـقـلـت «هـانـم» إلى دار العكايشة زوجة «لعمي صادق»، تجلس معظم أيامها في انتظار عودته من السفر، فما تكاد تهنأ به ليلة أو ليلتين حتى يتأهب لسفر جديد، فتودعه صابرة داعية متمنية سلامة العودة.

كله كوم، و«عزيزة» زوجة «عمي عبد الباقي» الغنام كوم آخر. أحلى نسوان البلدة بلا منازع. أبدعَ خرّاط البنات في خرطها على قالب مشدود لا يتهدل ولا ينبعج مهما حملت وولدت. بيضاء حمراء خضراء العينين مستديرة الوجه كالقمر، في صوتها لدغة تضاعف جرس حرف الراء. من حسن الحظ أن تزوج «عمي عبد الباقي» والدار في عصر رخاء رغم ويلات الحرب العالمية الثانية، حيث رمت الفدادين أقطاناً وحبوباً بورك فيها. وعام ذاك افتتحت في البلدة مستشفى كان أهل البلدة بزعامة «عمي درويش» قد جمعوا تبرعات لبنائها فجاءت شيئاً مفرجاً حقاً، وتربّعت على مدخل البلدة بسورها الأنيق الأبيض ووحداتها المتناثرة في رشاقة تتصل بينها طرق مبلطة مزدانة بالزروع على الجانبين، وحديقة صغيرة تجف بها. وجاء لها موظفون من الأغراب، من بينهم الباشتومرجي، الذي أتى بزوجه وأولاده وسكن في دار مهجورة بشارع داير الناحية، فعمرها وونسها، ولحس عقول أهل البلدة كلهم بزوجه وبناته الثلاث، السنايير اللاتي كن يرتدين الفساتين البندرية المحزقة القصيرة في تحشم قليل، ويمشين في البلدة كأنهن يمشين في المدينة، وقد انشغل رجال البلدة شيوخاً قبل الشباب بأمر البنات الثلاثة، وجعلوا من أنفسهم رقباء متطوعين، وباحثين وراء سلوكهن وسمعتهن، ففوجئوا بأن البنات الثلاث رغم هذا المظهر على درجة كبيرة من حسن التربية والصفاء والبراءة وحلاوة اللسان واستقطاب الحب. فكان أن نشأت مباراة حامية الوطيس بين شباب البلدة في التقدم لخطوبتهن. ولكن «عمي عبد الباقي» لم ينم الليل شهوراً طويلة بسبب «عزيزة»، أقام الدار وأقعدها فلم تعيره «تعلبه» التفاتاً فوقع في عرض «عمي درويش» الذي راح يعمل على إقناع الحاجة، فطلبت مهلة قصيرة، فخاف «عمي عبد الباقي» من ضياع الفرصة، فطمأنه «عمي درويش» بأنه هو الذي سيتولى خطوبة البنات الثلاث لمن يتقدم وسوف يعلن أن «عزيزة» محجوزة. ولم تكذب الحاجة خبراً. فبكرت من فورها بالتحري عن اسم بلدة الباشتومرجي الأصلية. وذات صباح ادّعت وهي تنادي على «عمي طاهر» لتجهيز الركوبة إنها ذاهبة لزيارة سيدي ابراهيم الدسوقي شيء للّه يا أبا العينين. ثم سافرت إلى بلدة الباشتومرجي. أما كيف تتعرف على أسرة الباشتومرجي وأهله وتعرف أسرارهم فإن ذلك ميسور تماماً بالنسبة «للحاجة تعلبه»، فلديها موهبتها، ذلك السر الغريب الخطير الذي تتمتع به دون نساء البلدة، إذ هي تمارس نوعاً غريباً جداً من الطب والعلاج. لديها «طاسة الخضة» وهي طاسة من نحاس قديم وقطعة زلط من جوار النبي، تمتلئ الطاسة بالماء حول قطعة الزلط وتبقى في مكان عال في العراء تسمع الأذانات الثلاثة: المغرب والعشاء والفجر، وعلى مَن تعرّض للخضة، أو صدمة الخوف، أن يشرب هذا الماء على ريق النوم في الصباح ليشفى بإذن اللّه. وهي تعير هذه الطاسة لكل من يطلبها دون أن تتقاضى أجراً، لكنها تأخذ شيئاً ثميناً على سبيل الرهن يسترده صاحبه عندما يرد الطاسة...

لكن الموهبة الكبرى التي تتمتع بها «الحاجة تعلبه» أنها تداوي وجع الأذان ووجع العينين. وما بين صلاة العصر وصلاة العشاء تزخر غرفتها بالزائرين القادمين من أطراف البلدة ومن بلاد مجاورة، كل يشتكي من أذنيه أو عينيه. فإذا كنت تحس بوجع في أذنيك فإنها تتناول رأسك بين راحتيها وتنيمه على وركها بحيث تكون فتحة الأذن إلى أعلى، وبجوارها زجاجة صغيرة بها محلول مركّب من صناف العطارة لا أحد يعرف ما هي على وجه التحديد. تفتح الزجاجة، تملأ فمها برشفة، ثم تضع شفتيها على أذنيك وتترك رشفة المحلول تنزل في أذنيك، ثم تعود فتشفطها إلى فمها، ثم تدفعها من جديد إلى الأذن، ثم تشفطها برفق، تمتصها، وهكذا عدة مرات حتى تغسل الأذن تماماً، وفي النهاية تبصق المحلول في قصرية وتريها لك فإذا بك تجد كثيراً من الدود والوسخ الرمادي الغريب يتلوّى زاحفاً وسط المحلول، فتشملك قشعريرة وتحس بشيء من الراحة يسري في أذنيك. ولقد أثار بعض المتشككين الخبثاء ـ منذ سنين طويلة ـ إشاعة هامسة تقول أن «الحاجة تعلبه» تأخذ الرشفة من زجاجتها بدودها ثم تبصقها في الأذن ثم تشفطها لتوهم الزبون أن الدود كان في أذنيه، ولهذا حاول بعض الزبائن في تحفّظ وأدب رؤية المحلول داخل الزجاجة، فما كان من «الحاجة تعلبة» إلا أن ـ دلقت من الزجاجة مقدار رشفة في فنجان صغير ثم عرضته لعين الزبون فظل يتمعّن فيه طويلاً فلا يجد ثمة دود أو أي شائبة، فهزّ رأسه في اقتناع تام. فأرادت أن تقطع دابر الشك من نفسه فأشارت له على فمها، ثم فتحت فمها عن آخره فبدا كسرداب أهتم مخيف ثم بصقت على الأرض عدة مرات لتقنعه أن فمها يخلو تماماً من أي شيء سوى اللعاب، ثم ملأت فمها بنفس رشفة الفنجان وسربتها إلى أذن الزبون ومصمصت وبصقت في قعر القصرية محلولاً برغوة يتخلّله دود صغير. من يومها لم يعد أحد يتشكك فيها، ولم تكفّ هي عن فعل هذه الطقوس قبل علاج أي أحد حتى لو كان طفلاً رضيعاً...

أما بالنسبة للعين فإنها تنظر فيها وتفتحها بأصبعيها وقد تعطيك تكحيلة من التوتياء أو الششم إن كان أمر الوجع بسيطاً، وتستطيع أن تنظر في عين الشخص نظرة عابرة تقول له بعدها أن في عينيه دوداً، فما عليه إلا أن يكف عن الانزعاج ويعطيها عينه، فتقرب وجهها منه وتخرج لسانها الرفيع المدبب وتفتح جفن العين مسربة طرف لسانها تحت الجفن من أعلى ومن أسفل، ثم تبصق على الأرض دودتين أو ثلاث، ويحس صاحب العين بصفاء مفاجئ في عينيه وعلى هذا فقد طبقت شهرتها الآفاق في العب كله من أقصاه إلى أقصاه. ولما كانت مشهورة بأنها لا تتقاضى أجراً على هذا العمل الخيري فإن الزبائن قد أغرقوها بالهدايا. وبات من المعهود أن يجيء الزبون حاملاً شيئاً ملفوفاً لا يسترده عند انصرافه. ربما يكون قالب سكر أو باكو شاي أو رصة من قطع الصابون النابلسي المفتخر، وربما قطعة قماش ثمينة، وترتفع قيمة الهدايا إذا كان الزبون قادماً من بلد بعيد فوق ركوبه.

وكان «عمي طاهر» يمني النفس بفسحة طيبة في رحاب الدسوقي جاءته على الطبطاب كما قال له أعمامي يومها في حسد. لكنه فوجئ بأن «الحاجة تعلبة» تطلب ولداً يعود بالركوبة من عند محطة البكاتوش. فلما ركبا القطار معاً فوجئ بأنهما ذاهبان إلى محافظة غير محافظتهم وكانت المحافظة في ذلك الوقت من أواخر الأربعينات تسمّى المديرية. ومن قطار إلى قطار آخر نزلت في إحدى المحطات يتبعها «عمي طاهر» كالأهبل في الزفة. ثم استنظفت حماراً لدى أحد المكاريين المنتظرين على المحطة، فركبته متجهة إلى بلدة الباشتومرجي، و«عمي طاهر» يلهث خلفها مع المكاري. فلما دخلت البلدة استبقت المكاري معها إلى ما تشاء من الوقت نظير ما يشاء من الأجر فقال بركة. ثم هدأت سير الحمار وأمرت المكاري أن يسحبه على مهل خطوة خطوة. وكانت ترتدي الملس الأسود ذي العواميد المنتفخة بكشكشة الخياطة، وتلف رأسها بطرحة سوداء من الحبر المفتخر، والمسبحة في يديها، وتتصاعد منها رائحة طيبة ورائحة السيادة والتعوّد على الأمر والنهي. ثم إنها بدأت تصيح بصوت رزين فيه بحة رجولية كبحة صوت «عمي درويش» بالضبط:

ـ اللي ودنه وعينه واجعاه... تشفى بأمر الله.

ولا تفتأ تكرر النداء من خطوة إلى أخرى. فإن هي إلا بضعة أمتار حتى استضافها واحد من علية القوم لكي تنظر في أذنه. فعالجتها له على مرأى من جمع حاشد منبهر لا يني يصلي على النبي وآله. ودعتها سيدة لتنظر في عينيها، فعالجتها بنفس الطريقة. فانعقد لسان القوم من الدهشة، وصارالجميع يتبارون في استضافتها. إلى أن بعث العمدة شيخ الخفراء في طلبها، وكانت في مندرة رجل على قد حاله، فنظرت إلى شيخ الخفراء من فوق إلى تحت نظرة غسلته بها وعرّته، وكانت حين تنفعل تتعثر في النطق قليلاً وتتأخر

بعض الحروف في حلقها فتبدو كأنها تسحبها بصعوبة لتكمل الكلمة، ثم إنها جمعت شجاعتها وقالت لشيخ الخفراء:

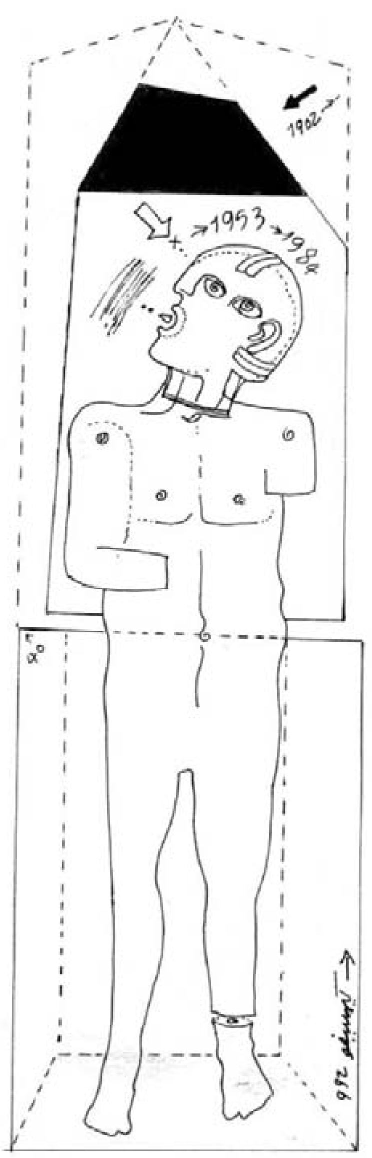
ـ قل لحضرة العمدة أنني لست شحاذة أطلب الرزق أو العون من أحد... قل له يا حضرة العمدة أن الحاجة تعلبة تفيد الناس مما وهبها اللّه، دون أجر إلا من اللّه... وقل له أيضاً أن الحاجة تعلبة لا تذهب لمَن يبعث في طلبها... إنها لا تذهب إلا لـمَن تطلبه... فإن كان حضرة العمدة يطلب علاجي فليتفضل بالحضور هنا.

وكاد شيخ الخفراء يطلق لسانه المتفلت على الدوام، لكنه نظر في هيكلها العام نظرة سريعة أدرك خلالها أنه أمام داهية قد يتعرض بسببها لما يكره، فاستدار عائداً إلى العمدة يبلغه ما سمع. فاندهش العمدة لكنه لبس هدومه ونزل إليها، ثم لاطفها واعتذر لها بأن نساءه يطلبن تشريفها لرؤيتهن، فتنازلت وذهبت معه. ثم إنها مكثت في ضيافة العمدة ثلاثة أيام بثلاث ليال كشفت خلالها على جميع أفراد عائلته، وكشفت كذلك عما في صدورهم جميعاً... وعرفت عن أسرة الباشتومرجي ما يشفي غليلها وتأكدت بما لا يدع مجالاً للشك أنه من نسل طيب وأن زوجته كذلك من بيت محترم، كما تأكدت أن أحداً من عائلته أو عائلتها لم يدخل السجن أو يتهم في شرفه أو نزاهته أو أمانته. ثم إنها طلبت الرحيل. فأمر العمدة بتوصيلها حتى مدينة دسوق وخلفها ركائب تحمل الأخراج والأجولة والأقفاص المحمَّلة بالهدايا من كل غريب ومثير. وفي دسوق تركت الخفراء بجوار الأمتعة ونزلت بصحبة «عمي طاهر» فتجولت بين محلات الصاغة فاشترت مشخلعه وكرداناً وقرطاً من الذهب وخلخالاً كبيراً من الفضة، واشترت حمصاً وحلاوة من جوار الدسوقي، وهريسة للأولاد، وبعض أصناف العطارة والتوتياء، ثم عرجت على دار السنترال فتكلمت في تليفون عمدة البلدة طالبة أن يبلغوا الحاج درويش بأن يرسل الأولاد لمقابلتها على المحطة بأكثر من ركوبه. ثم دخلت البلدة بموكب حافل، و«عمي درويش» يصفق كفاً على كفّ، واجتمعت نسوان الدار كلهن حولها مبهورات واعترفن بأن الدار من غيرها كانت ظلاماً وبلا معنى...

في تلك الليلة ذهب «عمي درويش» إلى دار الباشتومرجي حيث دوت الزغاريد طائرة كأسراب الحمام. وكان فرح «عمي عبد الباقي» أحلى فرح شهدته دارنا، إذ غنّى فيه «السيد مرسال» أكبر مطرب في عزبة الطوال المشهورة بالمغنيين، ورقصت الغازية في زفته. وكان جهاز «عمي عبد الباقي» الغنام أميز من جهاز كل أعمامي، فقد تزوج ـ دونهم ـ من بندرية جميلة غير لعوب، فجاء جهازها هو الآخر بندرياً مثلها، الدولاب العريض ذو الدرف الكثيرة والمرايا المتعددة، التسريحة التي لم تعرفها واحدة من نساء أعمامي كلهن، والشوفونيره ذات الأدراج بدلاً من البوريه، والسرير النحاس ذي العساكر النحاسية والداير الحريري، وترابيزة يقال لها السفرة مستديرة بمفرش وستة كراسي من الجلد، وطاقم من الكراسي يقال له الصالون بنوا له وللسفرة حجرة خاصة في الخلاء المواجه للدار. وبات لعمي «عبد الباقي» الغنام فضل إدخال نظام الكراسي المذهَّبة المنجّدة إلى دار العكايشة لأول مرة بعد الكنب البلدي والكراسي الخيزران والمصاطب. إلا أن هذا الصالون ظل مغلقاً شهوراً طويلة يتشاءم الجميع من منظره لأنه يذكرهم بكراسي وصيوانات المعازي. وكأنما كان تشاؤمهم إيذاناً بوقوع ما حدسوا، إذ مات واحد من أقارب العائلة ليس لدى أهله مكان للعزاء، فأقيمت المعزى في هذا الصالون، فكانت شيئاً لائقاً وجميلاً استحسنه القوم، فخصصوا هذا الصالون لمثل هذه المناسبة فحسب، ثم تحمّس «عمي درويش» فوسّعه فصار كدوّار العمدة بل أشد اتساعاً، وأضاف إليه بعض الكنب البلدي والكراسي الخيزران فصار يتّسع لمائتي فرد على الأقل.

ولم يكن أحد يتوقع أن تنجح هذه الزيجة، فهذه عروس بندرية فاتنة الجمال، وهذا عريس غنّام جوّال. لكنهم نسوا أن «عمي عبد الباقي» يحمل كل صفات الغنّام الأصيل بما فيها من خيال رقيق وشغل خشن. نسوا كذلك أنه صوفي عاشق للحفاظ على العهد قدر عشقه للعهد نفسه بكل ذرة في كيانه، محب جوال يجمع أغنيات البلاد والرعاة يعزف غناءه على السلامية أخت الناي، وأنه صبور على العهد مجالد للنفس يحب شغل السنة فيصنع الطواقي من خيوط الصوف المندوف الملون، وكان معجباً بصنيع اللّه في أن ينتقل هذا الصوف من فوق أجساد أغنامه ليتم ندفه وغزله في مكان مجهول ثم يعود إليه من جديد ليصنع منه هذه الطواقي الجميلة التي يحتجز أصدقاؤه أدوارهم لديه في صنعها لهم ولمعارفهم وأقاربهم. وكانت «عزيزة» مربعة الجسم منحوتة بدقة عجزت كل الفساتين مهما اتسعت أن تخفي تفاصيل جسمها الواضحة الصريحة إلى حد الصدمة، فإذا تكلمت سحرت حتى الصبيان، وأسرتهم بأصداء حرف الراء مجلجلاً مصهللاً في صوتها، وإذا جلست أمام الفرن انزرد وجهها وصار قرمزياً كقرص الشمس ساعة الشفق، وكانت ترتبك إذا تحدثت مع أي رجل حتى زوجها، وتتعثر في الكلام، فتجيء كلمات مكان كلمات، وأحرف بدلاً من أحرف، وهي أول من يضحك على لبختها وتخبيلها، فيضحك الآخرون مبسوطين من صفائها ومن حيائها وأدبها. وجميع الرجال أعمامها إذا ما اضطرت للسلام عليهم يداً بيد تفعل مثلما أوصتها حماتها بأن تلف يدها في طرف طرحتها قبل أن تمدها للسلام مسدلة بقية الطرحة على وجهها وجميع النساء عماتها حتى الصغيرات من بنات العكايشة بوجه عام، فكانت الصبية تفرح وتنبسط حينما تناديها «عزيزة» بـ: يا عمتي فلانة ـ على اعتبار أنها من عائلة زوجها. فكان أن حظيت بحب الجميع، ووزّعت عليها «الحاجة تعلبه» أموراً ميسورة تقتضي مثل نظافتها وهدوئها: عليها أن تقوم برب اللبن واستخراج القشدة منه في حضور «الحاجة تعلبه» وأن تصنع الزبد وتسيحه لتجعله سمناً تمتلئ به البرنيات الفخار. وقد اشتركن جميعاً في تعليمها دس الأرز المعمر وعمل الفطير المشلتت والفطير الذرة والفطير الدماسي والعيش الغربال والعيش المرحرح والقرص الناعمة، فكانت تضع حلاوتها في الفطير أو حتى في الملوخية القرديحي فيأكل الجميع أصابعهم وراءها.

كانت «عزيزة» رغم تواضع مركز أهلها، وبكونها ولدت في المدن وارتحلت مع أبيها في أكثر من مدينة في أكثر من مديرية، تضفي على الدار طابعاً بهيجاً وجديداً، لعلّه مسحة من المدينة تضفي بدورها على الدار مزيداً من العراقة والأصالة، فعلى قدر نشاط «عزيزة» في الدار كانت سرعان ما تستحم وترتدي ثوباً نظيفاً وفوقه آخر مفتوحاً بدرفتين تلمهما بحزام في الوسط من نفس القماش، ويستقر كعباها



فوق الشبشب المزوق كتفاحتين ناضجتين، وبدلاً من المنديل أبو أوية تلف شعرها ورأسها كله بشال من الحرير الأحمر القطيفة، ثم تجلس لتستمع إلى حكايات «الحاجة تعلبه» أو تخاريف «هانم» أو شكاية «مريم» من وجع المفاصل والصداع، أو شقاوات «بهانه» وحديثها المكشوف عن المواقعات الجنسية، أو أمنيات «سكينة» حول الخلفة وهي لا تفتأ تبتسم أو تضحك أو تعلّق تعليقاً يرضي السامعين كافة. ثم إنها غيّرت من طبائع نسوان الدار، فصرن يقلدنها من طرف خفي في الاهتمام بالنظافة وحفظ اللسان. وكان أكبر تأثير جوهري هو ما أحدثته في نفس «عمتي بسيمة»، إذ حفزتها حفزاً على الاعتناء بنفسها والجلوس كثيراً أمام المرآة، وصارت تستنفر إحساسها بأنوثتها، حتى غدت «عمتي بسيمة» أنثى لأول مرة، فبدأت تمارس الخجل من الرجال الغرباء، وتداري وجهها حياء، وترقق من صوتها وتحفظ لسانها عن الانزلاق إلى بذيء الألفاظ والشتائم الجارحة، وبدأ أكثر من عريس مغفل يهتم بها ويعرض خدماته لنا ومساعداته في حقولنا بالعمل المجاني. كذلك غيرت «عزيزة» من ذوق الأكل في دار العكايشة، فأدخلت إليها الأكلات البندرية، تلك التي تصنع من مركبات متعددة من قبيل المكرونة التي تسمّى بالبشامل، وصواني الخضار باللحوم، وكباب الحلة وأسياخ الكفتة مثل محلات البندر وطرقاً جديدة لطبخ العدس والبطاطس والفول والخضروات، وأصنافاً متعددة من الحلوى بعضها يدعى بأم علي أو لقمة القاضي أو ما يسمى بالكيك وبعضها الآخر يدعى بالجلاش والجاتوه،

وآخر ما كنا نتصوره أن يكون هناك نوع من الحلوى يحمل إسم عمتي بسيمة، ولم نكن نعرف من قبل غير المفروكة والبسيسة وسد الحنك والعصيدة والأرز باللبن والمهلبية، حتى الكنافة كنا نصنعها في الدار ونغمس حفنة من خيوطها في العسل الأسود ونأكل، فعلمتنا «عزيزة» أن صنع الكنافة له مرحلة أخرى إذ تضعها بعد ذلك في صينية كأنها البطاطس وتحشو جوفها بالزبد والزبيب والفول السوداني والعسل النحل... وعرفت مأكولاتنا طعماً حريفاً مشبعاً بأنواع العطارة من كزبرة وجوزة الطيب والحبهان وما إلى ذلك من توابل عطرية...

غير أن «عمي عبد العزيز» كان قد اعتراه القلق منذ دخلت «عزيزة» دارنا، فصار يكثر من المكوث في الدار لأتفه الأسباب، ويدخل أماكنها المتعددة دون أن يتنحنح، وقد يدفع باب الكنيف دفعة واحدة. ولما كانت حجرة «عمي عبد الباقي» مجاورة لحجرته فإنه كان يقضي الليل ساهراً كأنه في انتظار مهرجان قادم. وكثيراً ما كان الخارج ليلاً إلى الكنيف يفاجأ به يتمشّى في مربع القاعات رائحاً غادياً كأنه يتلصص أو يتجسس، فبعد أن يبصق المفاجأ في عبّه يكتفي بسا الخير، فيرد مغمغماً كأنه يكتم غيظه وحنقه الشديدين... وقد فشل أعمامي في تفسير سر انطواء «عمي عبد العزيز» على نفسه والشرود الطويل. وكان هو يتسلل إلى أمه في غرفتها فينام بجوارها لترقيه. فما أن ملست على جسده بالبخور عدة مرات حتى عرفت ما به، وليلتها جاء «عمي درويش» من غرفته وطرق باب «الحاجة تعلبة» ليصحبها تلحق بصلاة الفجر ككل يوم. لكنه ككل يوم أيضاً وجدها قد صحت وتوضأت وبدأت في قراءة الورد، فلما استدار متجهاً إلى البوابة نادته: «درويش»، «نعم يا حاجة» «تعال عايزاك» فطرق الباب كأنه غريب يطرق باب سيدة غريبة وصاح: يا ساتر ثم دخل وجلس بجوارها على حافة السرير. فمالت عليه هامسة في أذنيه بلهجة خطيرة: «أخوك رجع صبياً من جديد» هزّ رأسه في استفسار، فغمزته في ذراعه مرة:

ـ نسي أمر بناته العرائس وأبنائه العرسان... وبدأ يمرض بداء الحب... ويخيل إليّ أنه هاجر فراش زوجته منذ وقت طويل بلا سبب... لقد نظرت في وجهه فعرفت وفي عينيها فتأكدت.

قال «عمي درويش» بعد برهة في تريقة خفية: «والعمل... تراك تزوجينه من جديد؟» رفعت رأسها وزأرت فيه بقوة واستنكار:

ـ منذ متى يتزوج أولادي على زوجاتهم... لم يعد ينقصني إلا أن أجيء لكل بغل منكم بعدد من الجواري يرضين مزاجه... الزواج عندي مرة واحدة... أبوك لم يتزوج عليّ... وأبي لم يتزوج على أمي... ولولا موضوع الخلفة ومشاكله لما زوّجت أخاك عيسى بأكثر من مرة ولسوف تكون هذه آخر زيجة له... لقد نبهت عليه أن يعض على هذه الزوجة بأسنانه حتى لا يعيش بعد ذلك أرملاً طول حياته.

قال «عمي درويش» في حيرة:

ـ إذن فما الذي نفعله في عبد العزيز؟

قالت «تعلبه» في حسم:

ـ أعرف شغلت معه الأول في موضوع أهم... راقبه قبل أن يتسبب لنا في كارثة وفضيحة على آخر الزمن... بعدها لا نرفع رؤوسنا في البلد أبداً...

ثم مالت على أذنه وهمست طويلاً، فهز «عمي درويش» رأسه وقال: «يساويها ربنا». وكنت أنام مع «الحاجة تعلبه» في غرفتها أنا وأمي، فقدر لي أن أشاهد وأعرف الكثير مما يدور في غرفتها ولا يعرفه الجميع...

ومرت أيام وإذا بنا في عمق الليل نسمع تناطحاً يهز الأركان ويهبط في الأرض كأن جدراناً تقع. فخرجنا كلنا نرفع أشرطة اللمبات نستطلع الأمر، فإذا «بعمي درويش» كثور هائج يصرخ فينا: «كله يخشّ قاعته ويقفل عليه». ولم يتمّ الكلمة، بل لم يكملها، حتى أُغلقت جميع الأبواب من الداخل. غير أننا رحنا نصيخ السمع فنسمع همهمة غاضب وزئيراً يعقبه ضرب وصياح مكتوم. وفي الصباح علمنا من «بهانة» نقلاً عن «مريم» أن «عمي درويش» تربّص بعمي «عبد العزيز» بليل، وفاجأه في الظلام واضعاً أذنه على باب «عمي عبد الباقي» يتصنت، فما كان من «عمي درويش» إلا أن جذبه من خناقه بعنف وصار يدفعه إلى الوراء زغداً وتلكيماً وتلطيشاً وتشليتاً كأنه قد جنّ، و«عمي عبد العزيز» من فرط خجله وشعوره بالعار يكتم صياحه ويبتعد متحاشياً الضرب قدر الإمكان، ولكن «عمي درويش» لم يدعه إلا بعد أن صليا الفجر معاً وتصالحا، وتعهّد «عمي عبد العزيز» بعدم العودة لهذا الأمر. على أن ثورة «عمي درويش» الحقيقية كانت أفظع في اليوم التالي وأشدّ هياجاً وجنوناً، حين علم بطريقة ما أننا علمنا بالخبر ورددناه بين أنفسنا، فنفى الخبر نفياً شديداً، وصار يعنفنا كيف نفكر هكذا ثم هاجت عصاه وماجت وتطوحت فوق أجسادنا جميعاً ذات اليمين وذات الشمال، حتى ارتفع صراخنا عالياً، ودخل فأكمل على «مريم» حتى انطرحت أرضاً وصرنا نفوقها بالماء والنوشادر... ثم خرج يصلي العشاء معلناً أنه سيكمل تأديبنا بعد الصلاة.

وقد انكفأت فوق الخبر مواجير الزمن كلها. غير أن «عمي عبد العزيز» طافت بذهنه فكرة الانعزال وحده في معيشة، لم يصرح بها وإن قالها عرضاً. لحظتها انتفض «عمي درويش» كأنه لدغ، ورفع عصاه ثم ضرب بها الأرض تجاهه في قوة وشراسة، وهبطت «الحاجة تعلبه» عن سريرها مقبلة نحوهما، فأمسكت «عمي عبد العزيز» من خناقه وهو الكهل المتصابي، وهزّته بعنف وهي التي تجاوزت من العمر حداً لا نستطيع حسابه بالسنوات، ثم قالت له كأنه لا يزال ذلك الطفل الصغير الغرير:

ـ اسمع يا ولد... مَن لا تعجبه العيشة... مَن لا يعجبه العيش مع الحاجة فاطمة تعلبة فليرحل هو... فليخرج من الباب بطوله... وحده... حتى بدون ثيابه... حتى بدون أولاده... فأنا الذي ربيت وأنا الذي زوجت وأنا الذي أكسو وأطعم... والأولاد أولاد الدار قبل أن يكونوا أولاد أحد منكم... ولا أفرط في ظفر واحد منهم... ولا حتى في ظفرك أنت أيها الشايب العايب... ولكن مَن أراد أن يفرّط في الدار... فخير للدار أن تفرّط فيه... إنه يصبح كعود جف ولا بأس من رميه بعيداً عن الحزمة الخضراء... الدار هي دار العكايشة... ولقد تعبت في الابقاء عليها مفتوحة متكاملة ذات قوة وهيبة... ولست مستعدة للتخلّي عنها على آخر الزمن... ولست أطيق أن أسمع مجنوناً مثلك يقول هذا الكلام الخائب العبيط... إن قتلك أهون عندي من سماع هذا اللغو...

... وأحس «عمي عبد العزيز» بالإهانة فحاول التمرد والخلاص من يديها بشيء من الخشونة لم تعهدها من قبل، فاختطفت العصا من «عمي درويش» وبقوة رفعتها كفارس مغوار تريد أن تشج بها رأسه. وكانت جادة عنيفة لدرجة أن «عمي عبد العزيز» تراجع إلى الوراء مرتعداً ينتفض، لكنها تمالكت نفسها واندفعت تلاحقه بالعصا، فاعترضها «عمي درويش» صائحاً:

ـ صلّي على النبي يا حاجة بقى... سيبك منه هو يعني الكلام عليه جمرك؟

لكن «الحاجة فاطمة» لم تنم ليلتها، فظلت طول ليلها تقطع قراءة الأوراد بالقرآن وتقطع القرآن بالصلاة، وتختم الصلاة باستنزال اللعنات على كل شيطان أو إبليس يحوم حول دارها من قريب أو بعيد، ووقعت في عرض السماء راجية أن تحرق لها صدور الأعادي والحسّاد من معلومين ومجهولين ومَن في بطنه غيظ أو في صدره حقد، وفي قلبه مرض... وظلت شهوراً طويلة لا تكلم «عمي عبد العزيز» ولا يكلمها...

إلى أن ثقل عليها المرض ذات يوم بصورة واضحة، حتى هزل جسمها كثيراً وأصبحت تجيئها مياه الوضوء لحد عندها وتحتاج لمَن يسندها باستمرار ـ وهي مهمة تكفلت بها سميحة بنت الكاشف وعزيزة بنت الباشتومرجي ـ وبدأ الحزن والقلق يعتريان «عمي درويش» بصورة دائمة، وبدأ يقلّل من غيابه خارج الدار متوقعاً لأي مكروه وكان على «عمي عبد العزيز» أن يدخل ليصالحها، فلما دخل عليها لم تعطه وجهاً. فانحنى وقبّل رأسها، ثم جبينها، ثم يدها، فدبّت فيها الحيوية، ثم تماسكت ونزلت عن السرير وتربّعت على المصطبة بينهم، واندفعت تردد:

ـ لقد دخلت هذه الدار وهي مجرد جدران... ولم يكن أبوكم يملك أكثر من ثلاثة أفدنة هي كل نصيبه من تركة جدكم... العكايشة طول عمرهم هبل... كانوا لا يوافقون على زواج أبيكم مني... وكنت وحيدة أبوي... ومات أبي وأنا طفلة فكان عليّ أن أقوم بالسهر على فدانين... ولم أكن فلاحة... فزرعتها أشجاراً وخضروات... وقال جدكم لأبيكم كيف تتزوج بنت أرملة لا عائلة لها؟... وقد غاظتني هذه الكلمة... وكنت أنوي معاتبته بشدة وقسوة... لولا أن اللّه رحمه مني وافتكره قبل أن أدخل بأبيكم... وقد سامحته... فقد كان صادقاً... فمَن يجيء بالعكايشة بجلالة قدرهم للثعالبة الغلابة؟. أنا في الأصل كنت أحب عائلتكم وأعرف أن منها ناساً كراماً أصحاب علم وفضل وتقوى... صحيح أن ذلك كان منذ أزمنة بعيدة ولكن الورد إن ذبل تبقى فيه رائحته... وكان شرفاً كبيراً لعائلتي المتواضعة أن تصاهر العكايشة هذا صحيح... ولكن كان شرفاً لأبيكم أن تزوج من فاطمة تعلبة... هذا هو الأمر بكل بساطة... ولذا فإنني وإن أحببت جدكم لم أغفر له كلمته... ويظهر أنه هو الآخر كان يخشاني، ويخشى مني على داره... فقد كان يزورني دائماً في المنام... وكنت أطمئنه أولاً بأول على مستقبل ابنه، وعلى شرف العائلة ولم يكن يبدو عليه أنه راض... فأصبح يومي وأنا على غير انبساط... وأنتم... كنتم تلومونني وتنحلون وبري بينكم وبين أنفسكم... وتتهمونني بادخار عرقكم في دولابي... وإنني لا أصرف عليكم إلا بحساب شديد... وربما كان هذا صحيحاً... ولكنكم الآن، تملكون عشرين فداناً، كلها من حسن تدبيري وشطارتي... وفوق هذا تملكون ما

هو أهم، تملكون جماعتكم، تملكون كنزاً كبيراً هو كونكم جماعة يغلق عليكم باب واحد ويرعاكم قلب واحد مثلما الرب واحد... وطالما أنتم هكذا تكفيكم اللقمة ولو كانت كسرة، والهدمة ولو كانت واحدة... غير أنكم لا تفهمون هذا لأن هبل العكايشة متأصل فيكم ومن الصعب إقناعكم... وخير من فيكم هو درويش، لأنه ابني بحق، لكأنه أنا مضاف إليه جدكم... لقد ورث طيبة قلب العكايشة وورث الباقي مني... إن جدكم ظل إلى وقت طويل غير راض لكنه أخيراً خضع وابتسم... وفي كل ليلة أقيم فيها فرح في هذه الدار حضرها ورأيته يشارك فيها مبتسماً فرحاً راضياً... ولم لا يرضى وهو يرى داره قد عمرت بحق؟

ثم شربت الشاي معنا واستأنفت النوم بعد أن شربت جرعة من دواء صنعته بنفسها. وتبادل الجميع نظرة ذات معنى، وتهامسوا مصرحين بأن هذه هي علامة النهاية، وأن «الحاجة تعلبة» سوف تتوكل على الله خلال أيام قليلة، فهذا هو التفسير الوحيد لهذه الرقة المفاجئة ولهذه المكاشفة، ان الموت تسبقه عادة حالة من حالات الصفاء، هكذا قال عمي «الشيخ طلبة» وأمّن على كلامه «عمي درويش».

تأكد هذا الإحساس يوماً بعد يوم، حيث كفّت «الحاجة تعلبة» عن مناكفة النسوان، وقلّت من أوامرها للرجال، ولم تعد تهتم بمَن استيقظ ومَن أهمل، وطالت ساعات نومها طولاً غير عادي. وكانوا يجلسون حولها بالساعات يقيسون نبضها وينتظرون الخبر اليقين، وفي اللحظة التي يتصورون فيها أنها ربما تكون قد أسلمت الروح، إذا بها ترفع جفنها وتحرك شفتيها وإذا بها تصلي، ثم ترمي إليهم بنظرة خاطفة وتقول: «هي المغرب أدنت ولا لسه؟» فيتعجبون، إذ يكون المغرب على وشك الآذان أو بالكاد انتهى الآذان، أي إنها ليست فقط صاحية بل ومنتبهة إلى الزمن بكل يقظة. وأحياناً كانت تفاجئهم بصيحتها المعهودة المفاجئة: «لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله»...

على أن «عمي درويش» قال: «ما بدهاش» وسافر إلى دسوق وأتى بحكيم نطاس شهير في المركز اسمه «ألبير فهمي» الذي دخل عليها بحقيبة جلدية صغيرة فتحها وظل يكشف عليها ساعة كاملة ويجري لها بعض الاسعافات، وفي النهاية أغلق حقيبته دون أن يكتب روشته دواء كالعادة. فنظر له «عمي درويش» مستفسراً، فبسط الحكيم كفه ناحية رأسه قائلاً: مفيش داعي للغرامة... حنكتب علاج بس مفيش نتيجة» قال «عمي درويش» وهو يغالب دموعه: «يعني مفيش فايده». قال الحكيم: «ربنا يريحها أحسن... خلاص... المسألة مسألة وقت... يعني أيام معدودة» ثم سلم وانصرف يوصله «عمي طاهر» بالركوبة إلى المحطة.

في تلك الليلة نامت «الحاجة تعلبة» نوماً عميقاً استمر حتى مساء اليوم التالي، حيث فتحت عينيها لبرهة طويلة تمتمت خلالها بعض تمتمة غامضة أغلب الظن أنها صلاة. وانزوى «عمي درويش» في ركن بجوار البوابة يفكر وقد بدا عليه الهزل مرة واحدة، حتى أننا جميعاً كباراً وصغاراً فوجئنا به على هذه الحالة فانزعجنا، إذ بدا أن ثيابه قد اتسعت عليه، وأصبح بداخلها كعود الحطب، متهدل الملامح شاحب الوجه ناشف الريق متشقق الشفتين. وكان الزوار قد بدأوا يتوافدون على دارنا بلا انقطاع فيجلسون ويقولون «لعمي درويش»: «مالك يا راجل موهوم كده لي... هي الدنيا انهدّت ولا إيه... الناس كلها بتموت واحنا كلنا مصيرنا الموت» فلا يرد ثم يودعهم ويستقبل غيرهم ولا يتكلم كثيراً، وكل ساعة أو أكثر يدخل على أمه فيقلبها ويحاول محادثتها. ثم يعود أكثر شحوباً وقد فقد الكثير من هيبته وبدت عصاه كبيرة عليه غير متناسقة معه...

ثم إنه ركب الحمار وسافر إلى دسوق مرة أخرى وأتى بحكيم آخر أكبر من سابقه يتقاضى الشيء الفلاني في الكشف الخصوصي ناهيك عن السفر. ما إن رأى «الحاجة تعلبة» حتى هزّها بأسف ولا مبالاة ثم انصرف مؤكداً أن الولية تلفظ الآن أنفاسها الأخيرة وأن علينا أن نتدبر الأمر من الآن...

من فوره خرج «عمي درويش» إلى دكان «الحاج علي القطان» فاشترى أثواب الكفن من أجود صنف وأغلاه. ثم أمر فجاء بالبناء والنقاش وذهبوا إلى مقبرة العائلة فأعادوا بناءها من جديد على نحو أكثر جمالاً وهيبة وأقرب إلى أضرحة الأولياء الصالحين. نظر إليها «عمي درويش» من جميع الاتجاهات من قريب ومن بعيد حتى بدا عليه الرضاء التام. وتولّى بنفسه إحضار الماء وسقيا شجرة التوت الكبيرة والأعشاب المتناثرة وأحيا شجرة الصبار الجافة. ثم عاد إلى الدار يخب في جلبابه ويجرر عصاه من فرط الارهاق والنكد، فبعد ساعات قليلة سوف تخلو دارهم ـ لأول مرة ـ من «الحاجة تعلبة» خلواً نهائياً. ثم ابتلع دموعه وواصل السير إلى الدار. كان هناك بعض ضيوف من الأغراب يشغلون المصطبة الكبيرة، فسلم عليهم واتجه إلى غرفة الحاجة وراح يقلبها ويحاول محادثتها دون جدوى. فخرج، وكان ثمة امرأة عجوز قد جلست في الرحبة الجوانية من الدار وفردت القماش وراحت تخيط الكفن، وكان اللون الأبيض قادماً نحو عيني «عمي درويش» فيلوي وجهه في انقباض شديد. ثم إنه خرج إلى الخلاء، فخرج وراءه كالعادة موكب من الرجال، فأعطى أوامره لمَن حوله باحضار الفئوس وتنظيف المكان حول الدوار الكبير، وتنظيف الدوار نفسه من الداخل ورشّه بالمياه. كذلك أمر بارسال مندوب إلى «عباس الملا» في دسوق ليحتجز مكروفوناً ولمبات، وآخر إلى بلدة مجاورة للإتفاق مع أشهر مقرئ في العب كله، وثالث إلى بلدة العكايشة يبلغ القوم مقدمات النبأ...

فلما بدئ في تنفيذ كل ذلك أمامه عاد فدخل الدار فتحرك الموكب وراءه داخل. خلع «عمي درويش» حذاءه وتربّع فوق المصطبة مستنداً على المساند الكبيرة الصلبة، واضعاً عصاه بجواره. ثم عاد فجلس متقرفصاً وشرد ببصره لبرهة طويلة، ثم أراح رأسه على كفه واندمج في تفكير عميق، وطال استغراقه حتى سكت مَن حوله لاعطائه فرصة للنوم ساعة أو ساعتين يستعين بهما على ما قد ينتظره في المساء من مشاق. لكن النوم طال، فاضطر الضيوف إلى الانصراف، واضطر «عمي عبد العزيز» لايقاظه حتى يسلّم عليهم. هزّه برفق قائلاً: «يا حاج». ولم يكمل كلمته إذ سقط رأس «عمي درويش» على صدره. فمال عليه «عمي عبد العزيز» وتفحّصه أن السر الالهي قد صعد.



المنخل الحرير

بعد انقطاع لا يدوم أكثر من جمعتين تعود البهجة من جديد... إذ ما يكاد الأسبوع الأول يمر حافلاً بالأرغفة الطازجة والأقراص الناعمة والفطير المشلتت والعصيدة المصنوعة بالدقيق والعسل، حتى تبدأ من جديد سحب من الهم تسيطر على دارنا لا نعرف لها سبباً، لكن لون الأصبحة يتغير ويبدو كأن أبي وأمي غير منتبهين إلينا. ثم تجيء ليلة يتعشى فيها الأب معنا على غير العادة فنلاحظ أن وجهه قد خلع عن نفسه كثيراً من الملاءات السوداء حتى صفت صفحة الوجه عند ملامحه الحقيقية. يسيطر الهدوء من جديد على أمي فتتربع معنا فوق الحصيرة حول الطبلية، وقد صفا وجهها هي الأخرى وانسدلت على جانبيه مقاصيص الشعر الفائض بغزارة من تحت المنديل أو أوية... فنعرف أن السحب الغليظة الداكنة التي لا نعرف سببها قد بدأت تنجلي...

في الصباح تبكر فتجدني مبحلق العينين في انتظارها. تذهب إلى الحوض الاسمنتي الذي نستحم فيه في ركن القاعة. تغسل وجهها بكوب ماء. تسحب شالها الأسود. تلف به رأسها. تتجه إلى أبي فتصحيه برفق. يتقلب ثم يجلس. يدب يده في جيب الصديري، يخرج الكيس يتناول منها حفنة من القروش الفضية والشلنات والبرايز الورقية، يعدها في كف أمي قرشاً قرشاً ونصف افرنك نصف افرنك وشلناً شلناً وبريزة بريزة تعيد هي عدها من جديد قائلة: اللّه واحد... مالوش تاني... العدد ثلاثة. تصرّها في طرف المنديل أو أوية وتعقد عليها جيداً ثم تعود فتتعصب به لتختفي العقدة بين طيات المنديل... أتبعها في قفزة واحدة إلى الخلاء. أظل أتبعها وأنا أعرف إنها ذاهبة إلى مخزن الحاج داوود. يشملني الفرح حين أراها متّجهة إليه. يقابلها ابنه الكبير «طلب» الذي يغازل كل نساء البلدة بلا استثناء كحق سلمت له البلدة به لثقتهم في أن أباه الحاج قد ربّاه بشدّة وأدّبه فأحسن تأديبه، وأن هذا الغزل مجرد غزل فارغ. تقول له أمي وهي تتجاهل ما في رد صباحه من إيماء إلى الورد والفل والياسمين والقشطة الرباني.

ـ بكام القمح النهارده يا سي طلب؟

يقول لها من خلال ابتسامته الأزلية الشابة:

ـ بعنا بتلاتين الكيلة... إنما عشانك بتسعة وعشرين.

تقول بتلقائية:

ـ هز، ودك طبعاً.

وهي كلمة ترد بها كل مَن تسمع السعر، وتقصد أنها يحق لها أن تجلس بنفسها وتعبئ الكيلة وتهزّها حتى يستقر القمح فيها وينتظم فتتسع مساحة الكيلة لقمح كثير، ثم تدكّ وتكبس، وتحط قمحاً، وتهزّ وتدكّ. ورغم أن «طلب» سوف يبيع لها بهذه الطريقة إذ أن السعر الذي يطلبه يحسب حساب هذه العملية، فإنه يحتجّ احتجاجاً مسرحياً قائلاً:

ـ لا... قايم... بتلاتين قايم.

أي أن الكيلة تمتلئ دفعة واحدة وكفى. لكنه يقصد من ذلك أن تظل السيدة المشترية تقول له محتجّة: «هزّ ودك» وهو يردد خلفها: «قايم»... «هزّ ودكّ»... «قايم»... فإذا ما انتهبت السيدة إلى ما في الكلمة من غمز خبيث لطيف احمرّ وجهها خجلاً ولكزته في كتفه بعشم فيتلقى اللكزة بحركة مسرحية كأنما أصابه لهب لذيذ. وفي العادة يترك السيدة تبرك على الكيلة وتعبئها بالطريقة التي تشاء.

على أن أمي لا يروق لها مزاحه وإن جاملته بالسكات. وفي الواقع لا يروق لها أي مزاح وهذا ما يطمئن أبي ويضايقه في نفس الوقت. تتجاهل غزل «طلب» وتتجه نحو جبل القمح في نهاية الحجرة قائلة:

ـ يا خويه انت باين عليك فايق ورايق.



ثم تبرك على الكيلة وتظل تعبئ، وتهزّ، وتدك، وتعبئ وتضيف قمحاً، حتى يعلو القمح فوق حافة الكيلة، فتضع من كفّ يسراها حاجزاً تسند به المرتفع الهرمي الزائد ثم تدلق في قفتها الكبيرة. وهكذا تفعل أربع مرات ثم تختلس حفانا أو حفانين من غفلة من «طلب» الذي يحلو له أن يصيح فيها منبّهاً وهو يعد فلوسها:

ـ شايفك بضهري.

فتردّ عليه باحتجاج باسم:

ـ فاكرنا حراميه... طب ما دام قلت كده بقى أهه.

ثم تغترف حفنتين أخريين ترمي بهما في القفة...

تعود إلى الدار وقد تحولت إلى جسد يتلعبط تحت القفة الثقيلة في عياقة لا مثيل لها، فأدهش كيف ينفض جسدها عن نفسه كل هذه البهجة وهي لا تشرب إلا المر ليل نهار. تحط في وسط الدار بمساعدة عمتها «قطيفة» التي تدخل وراءها من تلقاء نفسها لهذا الغرض. تجيء فاردة ساقيها واضعة فوقها الصينية، وتغرف من الطشت قدراً تضعه عليها وتروح بكفها تسحب حفنة حفنة تفردها على الصينية لتنتقي من بينها قطع الطين والحصى والدنيبة، وهكذا إلى أن تنتهي من نقاوة القمح كله حبة حبة. ويكون النهار قد انتصف. فتنادي عمتها «قطيفة» لتساعدها في رفع القفة على رأسها. أكون قد سبقتها إلى الطريق وقد بدأت أنسى شبح الأيام الفائتة تشملني زأططة وفرفشة فأروح أضرب الحصى بقدمي وأترقص في مشيتي وربما غنّيت. أترنّح فوق شواطئ القنيان بشقاوة وهي من خلفي تصرخ كل حين في فزع صائحة بي أن أمشي مثل خلق اللّه. حتى نصل إلى ترعة المشروع عند الموردة بجوار الكوبري الذي هو نفس الطريق يفصل بين جزئين من الترعة يتصلان بماسورة واسعة مهولة تحت الأرض. الموردة عبارة عن شاطئ مبنيّ بقطع كبيرة من الحجر يتناسق في

دوائر يتخلّله سلّم حجري عريض هابط إلى المياه. كذلك الأمر بالنسبة للشاطئ المقابل. يستقبلني مهرجان النساء بكرنفال بهيج من الألوان. أفخاذ مطوية وأرداف مكتنزة وأثداء مندلقة وشعور منسابة وأجساد لامعة ساطعة في ضوء الشمس تنتفض بالحيوية والنشاط فيبدو كأنه احتفال كبير. بعضهن يغسلن المواعين بهباب الفرن وحزمة القش. بعضهن يغسلن الثياب بالصابون، بعضهن يغسلن القمح...

تنضمّ أمي إلى هذا الحفل الجميل... تعافيهن بالعافية وتهبط الدرج إلى مستوى المياه فتجلس هي الأخرى طاوية فخذيها مبرزة عجيزتها. تنتزع القفة الملآنة من قفة فارغة تتناول مقطفاً صغيراً كان مطوياً تحت إبطها. تملأه بالقمح وتغطسه في قلب الماء فتسودّ صفحة الماء بما كان في القمح من تراب ووسخ. تهزّ المقطف تحت الماء ثم ترفعه يشر منه الماء المسودّ. تعيد الكرّة مثنّى وثلاث ورباع ثم تدلق القمح المغسول في القفة الفارغة بعد غسلها هي الأخرى. وهكذا إلى أن تنتهي من غسل قمحها ثم تتقرفص ناظرة إلى إحدى جاراتها دون أن تنبسّ بحرف، فتترك الجارة ما في يدها وتجيء لتساعد أمي في حمل قفتها على رأسها، لكنها قبل أن تستدير لتمضي تلقي حواليها نظرة فاحصة مستعدة للهلع في البحث عني. أكون قد انضممت إلى الأولاد، إذ خلعنا جلابيبنا وألقينا بأنفسنا في قلب الترعة نطبش ونقذف بعضنا البعض برذاذ المياه، ونخرج لنتمرّغ على تراب الطريق فنكتسي أثواباً كثيفة من حصى داكن نتوجه بطرطور من الطين نلصقه فوق الرأس ونمشي هكذا ذهاباً وجيئة نخيف المارّة ثم نقذف بأنفسنا من جديد في قلب الماء. يدهمني صياحها الذي تزداد فيه - كلما صاحت - نبرة أحس أنها عورة لا يجب أن يراها الآخرون أو تصافح آذانهم: «يا واد ياللي تنشك في لسانك... تعالى إلاهي ما توعى تبات. إلاهي تنزل ما تطلعش يا ابن بطني... يلا قدامي فوت». فبسرعة أمسح بقايا الماء عن وجهي وأسحب ثوبي وأجري به عارياً خلفها. وبعد خطوات تكون الشمس قد جففت جسدي فارتدي ثوبي.

نصل إلى الدار. تصعد أمي إلى السطح. تفرش الحصيرة وجوالين. تفرد فوقها القمح الطري. تجلسني أمامه ممسكاً بعصا طويلة، وتنزل لتكنس الدار وتعد وجبة العشاء على عجل. لا بد أن تكون عيني في وسط رأسي ترقب أي غراب مفترس أو حمام سابح أو عصفور باحث عن حبة رزق، لأرفع العصا أذب أي هجوم على قمحنا. إذا سرحت قليلاً في لعبة أو في فكرة التسلّل إلى سطح الجيران لسرقة كوز من الذرة أشتري به العسلية تذكرت قرصة قرصتها لي أمي ذات يوم نسيت فيه القمح فمرّ حمار ضالّ أكل منه حتى شبع ويومها ابتلعت أمي غصتها وقطعت من خدي قطعة ظلّت تلهب دمي كلما تذكرتها...

تنتهي الشمس من أداء مهمتها على خير وجه فتلفّ وجهها بالملاءة القرمزية وتنسحب إلى ما وراء السطوح والأضرحة والحقول البعيدة وتظل تشاغب قمحنا باسمة حتى يدركها الليل فيفرد فوقها عباءته السوداء. وحينئذ تجمع أمي قمحها حبة حبة تعيده إلى القفة وتنزل برفق وحذر هابطة السلم الخشبي الرفيع المسنود على حافة السطح، وتمضي خارجة موصية عمتها قطيفة أن تجعل بالها من الدار وأن تنبئ عبد الشافي - أبي - بأنها عائدة بعد وقت ربما يمتدّ إلى منتصف الليل...

في بلدتنا ثلاث ماكينات للطحين، لكن أمي تختار ماكينة العمدة مصطفى الجيار الكائنة على مقربة من ترعة السلمونية في المدخل الشرقي للبلدة، تختارها ليس لأن صاحبها العمدة وإنما لأن الأسطى عبد السلام الذي يديرها ويجلس أمام القادوس يمتّ إليها بصلة قربى، إذ هي تفرض علينا أن نناديه: يا خال، وإذا خاطبته قالت: يا عبد السلام يا خويه ويقال أنه من عائلة أبيها المرحوم، وأنها لذلك تجعل منه أخاً ولها وخالاً لنا، وأنه ليجاملها مجاملة علنية يعرفها الجميع ولكنهم جميعاً يتغافلون من أجل خاطر عيونه فهو الوحيد الذي ولفت عليه الماكينة وباتت لا تدور إلا بيديه ولا أحد غيره يعرف خلتها...

تقطع أمي تذكرة بأربع كيلات توزن على الميزان ذي القاعدة الخشبية والرمانة المتحركة على قضيب مضلّع محفورة فيه شرط وأرقام وعلامات. تدفع عن كل كيلة خمس مليمات ثم تأخذ التذكرة وتتجه بها مباشرة إلى الأسطى عبد السلام أمام القادوس وتعطيها له، فيغرزها في سلك معقوف بجواره مع سوابقها. فلا يتذمر أحد من الزبائن لأن أمي أخذت دوره. بكل ثقة وخجل تصعد أمي بالقفة على سلم خشبي ثابت يوصلها إلى السطح حيث فتحة القادوس الواسعة التي تشبه نفيراً كبيراً. تنتظر حتى تغيب آخر حفنة قمح كانت في قعر القادوس، ثم تسرع بدلق قفتها في فتحة القادوس. على الفور يكون الأسطى عبد السلام قد تابعها بوجهه العريض الأسمر المكتنز الملامح المطبق الشفتين على بسمة صحراوية عصية على الانطلاق، ومثل كل الوجوه في الماكينة اكتسى بوبرة من الدقيق الأبيض تسوى بين جميع الوجوه. يسرع ببرم دائرة حديدية صغيرة على يمينه يغلق بها تيار الدقيق المتدفق من فتحة أسفل القادوس. ولربما أحست صاحبة الدقيق أنه اختصر من حقها دفقة أو دفقتين أو ثلاث، لكنها تكتفي بارسال نظرة ذات معنى إلى الأسطى عبده ثم ترفع قفتها وتمضي...

ترمي له أمي القفة الفارغة فيتلقفها ويضعها أسفل الفتحة السفلية ثم يدير العجلة فينهمر الدقيق انهماراً كثيفاً حبيباً. وتهبط أمي لتقف أمام القادوس تفرد الدقيق المنهمر في القفة وتكبسه حتى تمتلئ القفة فتجيء بغيرها. وحينما تقل كثافة الانهمار ترفع ذراعيها وبكفّيها الجميلتين تروح تضرب وتضرب فوق خشبة القادوس بكل عنفوان وقوة حتى يجود بآخر ما في جوفه من شعيرات الدقيق. هذا القادوس كم يتلقى من ضربات النساء طول النهار والليل فلا يكلّ ولا يملّ ولا يني يدفق في قففهم ذلك الشريط الأبيض الساخن. ويعرف الأسطى عبد السلام أن صاحبة الطحين التالي قد أفرغت قمحها في القادوس منذ برهة وأن كثافة الانهمار قد عادت من جديد لكنه يتغافل لبرهة غير وجيزة تتلكأ خلالها أمي في الفرد والكبس وهي تنكس رأسها في خجل ينبئ عن شدة الامتنان والشعور بالذنب، ثم يغلق الأسطى عبده دفق الدقيق ويساعد أمي في حمل القفة. وقبل أن تمضي تستدير باحثة عني بنظرات وجلة وقد اصطبغ وجهها هي الأخرى بقطيفة من الدقيق. أكون قد انتهيت من مهمتي الصعبة في مغافلة خاله «ست البلد» وسرقة حفنتين من الترمس المملّح اللذيذ حشوت بهما جيبي ورحت في اطمئنان تام أشيع في فمي الحبة تلو الأخرى بقشرها...

أمضي خلفها ممسكاً بجلبابها هذه المرة أحاول الانتظام في إيقاع جسدها المنتفض تحت قفتين ثقيلتين، والليل مخشوشن بصفير الصراصير ونقيق الضفادع ونباح الكلاب.

تدلف أمي داخلة الدار باسم اللّه الرحمن الرحيم: تنادي من أول العتبة في هدوء قائلة: يا عبد الشافي. فيخفّ أبي لاستقبالها حاملاً عنها بعض حملها ليضعاه على المصطبة الكبيرة التي ننام عليها كلنا. وهنا يحلو له أن يعود فيستغرق في النوم. تجيء أمي بالطشت وتضعه فوق المصطبة وتجلس أمامه. تنتظر قليلاً. أزحف نحوها شيئاً فشيئاً علّني أعرف فيمَ شرودها ذاك. أنظر في عينيها فأجد فيهما أبحراً من الحزن الغامض العميق. فينقبض قلبي، يركبني الغمّ، أضع رأسي على فخذ أمي المتربعة محاولاً الاستغراق في النوم كأبي. أشعر برعشته وسخونته فأعرف أنها لا تزال متعبة وأسمع دقات قلبها تطن في أذني. أتوقع أن ترفع فخذها لتدفعني عنه صائحة: «حلّ عني بقى خلّي عندك دم». لكنها لا تفعل، بل تمرّر يدها على ظهري فأستنيم في لذة فائقة تخدعني حتى لأغيب عن الوعي لفترة طويلة يحلو لي أن أطيلها بقدر. بعدها أفتح عيني في شغف فأرى خيال أمي مجسداً على الحائط بجلستها، بالفصل الحاسم بين إليتيها كأنها عارية من كافة الثياب. يتدحرج رأسي فوق حجرها رائحاً غادياً كأن في جسد أمي قوة شيطانية تدفعني بعيداً لتردّ بي وهكذا في عنف وقسوة شديدين، فأعرف أن المنخل السلك لم يفرغ من مهمته بعد، وأستشعر شيئاً كالغضب العارم كالسخط يتصاعد من جسد أمي وأنا رائح غاد ما بين اليقظة وباب النوم. في قلب المنخل السلك، ووسط الدقيق، ملعقة وضعتها أمي لتكون ثقلاً يحفز الدقيق على الزحف في دوامة مع حركة المنخل، لا تني تضرب جدار المنخل مرة حادة وأخرى خافتة: «تشك تشك تشك» دوامة الدفء المنبعثة من صدر أمي وما تحت الصدر تجعل صوت ضرب الملعقة في جدار المنخل يخفت شيئاً فشيئاً ثم ما يلبث أن يختفي تماماً، ثم ما يلبث الكون كله أن يختفي لبرهة أشعر خلالها كأنني مُقبل على هدأة عظيمة بهيجة ممتعة وكأن الكون قد انتظم في إيقاع جميل متلاحق السرعة: دم تك دم تك دم تك دم تك دم تك... أفتح عيني من حب ومن بهجة فتسقط على الحائط المدهون بضوء اللمبة نمرة خمسة... صورة أمي لا تزال متربّعة على الحائط لكن رأسي هذه المرة يؤدي فوق حجرها رقصة هادئة يجسدها الايقاع الجميل، والمنخل نصف طارة سوداء معلقة في الهواء رائحة غادية في انضباط وإحكام كأن ثمة مغناطيس خفي يتحكّم في ضبطه، كل ما هنالك أن كفي أمي المتقابلتين تتبادلان لمس المنخل كلما ارتد إليها، مجرد اللمس فحسب كأنها تعزف الموسيقى. الدقيق الأبيض العلامة ينسرب من المنخل مثل ضوء الكشاف، فأعرف أن طور المنخل السلك قد انتهى وأن المنخل الحرير قد بدأ يعيد نخل ما سبق أن نخله المنخل السلك ليفرز العلامة من السن. تنسرب إلى أنفي وخياشيمي أحلى رائحة في الوجود مسكرة، لا أعرف إن كانت رائحة الدقيق الساخن أم رائحة جسد أمي المشبع بالدفء والحرارة؟ أم الرائحتين معاً؟ وإذ يشغلني التمييز بين الرائحتين أكون قد ذبت في نوم عميق عميق عميق، وصرت جزءاً من موسيقى المنخل الحرير يرسم على الحائط في الضوء العليل ظلالاً من الألحان.

العتقى

كنا مضطرين دائماً للذهاب إلى العتقى. فأبي ـ ولا غرور ـ هو الوحيد من بين أخوته الذي تعلّم القراءة والكتابة فألحقه مرشّح الدائرة موظفاً بمصلحة المساحة، يقبض راتباً كل شهر يدفعه كله إلى البقال الذي يجرّ منه السجائر والشاي والسكر له ولكل أعمامي، مقابل أن يأكل هو ونحن من زرع الفدادين الثلاثة التي تمتلكها أمه مبروكة الشيالة إرثاً عن أبيها ابراهيم الشيال. لكن الأهم من كل ذلك أن أبي لا بد أن يرتدي حذاء لامعاً نظيفاً، وحيث أنه موظف وله في البلدة إسم ورسم ومكانة فان زوجته هي الأخرى لا بد أن يكون لها حذاء ترتديه عند الخروج على ندرته: شبشب أسود ذو كعب، أحب رؤية أمي وهي ترتديه داخل الدار، حيث يستقر كعباها المستديران كتفاحتين فوق كعب الشبشب وتخطر في الدار رائحة غادية بالأشياء، لطرقعاته تحت كعبيها صوت كصوت القبلة النشوانة فرحة تكرر نفسها كلما ابتعد الكعب عن الكعب لبرهة ثم عاد، سمحت أمي لنفسها بارتدائه داخل الدار منذ أن اشترى لها أبي شبشباً جديداً ـ أسود أيضاً ـ في العيد الصغير لكن المناسبة لم تكن العيد إنما كانت سفرها لأول مرة في حياتها بعد زواجها لزيارة أمها في المدينة المجاورة حيث تقيم لدى بعض أقاربها.

لأبي ثلاثة أحذية، أحدها أبيض على بني، وهو مخبّأ دائماً في درج البورية تحت ثياب مهملة يحتفظ به أبي للطلعة، للسفر، لحضور المجالس التي تضم علية القوم، إذ يلبس الجلباب الصوفي فوق الصديري الشاهي، وفوقه يرتدي البالطو الجبردين الأصيل ثم يضع الطربوش على رأسه جاعلاً الزر مجنحاً نحو اليمين ما أمكن، ويمسك العصا الأبنوس أم عوجايه وإذ يمشي تراه ينظر أول ما ينظر إلى الحذاء في قدميه، ثم يتجه إلى مرآة البورية ثم مرآة التسريحة ليرى الحذاء من جديد، فيما هو يتمتم لنفسه كأنما قد سأله سائل، يقول: «بلدنا دي أصلها عجب» «الواحد فيها أول ما يشوفك يبص في جزمتك على طول» ناس عندهم عقدة الجزمة «من جزمتك يحكم عليك» ثم يداعب شاربه الخنفساء المستقر على فمه الواسع الرقيق، ويضيف «ناس فاضيه» ثم يخرج، وحينئذ تبدأ مهمة العصا في طرد الحصى من أمامه حتى لا يتعرض لنعل الحذاء بسوء. أما الحذائين الآخرين فكانا هما وشبشب أمي الذي ترتديه داخل الدار، وجزمة أخي التلميذ، وصندلي، مصدر المهمة الملقاة على عاتقي دوماً وهي الذهاب إلى العتقى بين يوم وآخر أو جمعة وأخرى أو يوم سوق فالذي يليه. أما شبشب جدتي «مبروكة الشيالة» فإنه خرج من عهدتي منذ مدة طويلة حينما أفتى العتقي وهو يهز رأسه في أسف بالغ أن الشبشب لم يعد يصلح للاستعمال، إذ لم يعد في جلده أو نعله مكان لخيط أو لغرز المخراز. مع ذلك لم تفرط فيه جدتي التي يحلو لنا جميعاً تجريدها من هذا اللقب والاكتفاء بمبروكة الشيالة أسوة بأهل البلدة كلهم. فكانت إذا تهيأت للخروج طلبت الشبشب، وحينئذ نظل جميعاً نبحث لها عنه، لنأتي بفردة من تحت الصندرة، وأخرى من تحت بير السلم أو ربما من كوم التراب في الشارع المواجه لدارنا.

وشبشب «مبروكة الشيالة» قد أصبح من فرط الاستعمال والقدم كجيفة بلا ملامح، مجرد جلدتين كئيبتين منكفئتين

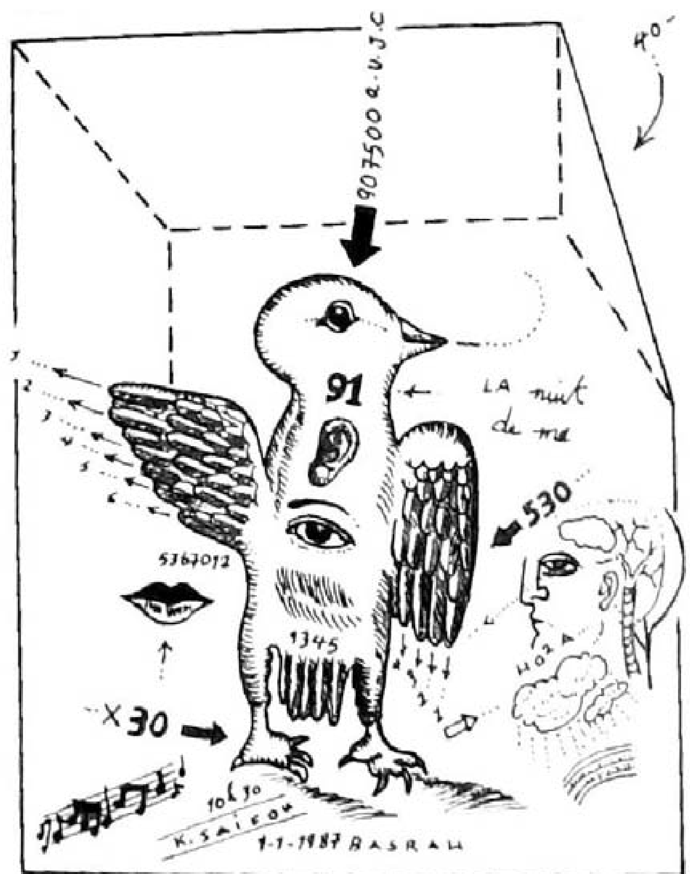


على بقايا نعل تصلب وتآكل وملأته القروح بالثقوب النافذة تسمح بالكاد لأن تدس مبروكة الشيالة أصابعها في الجلدتين وتبقى كل قدمها على الأرض، وتزحف في مشيتها ببطء وتأن لتظل أصابعها متمكنة من الاحتفاظ بالجلدتين. وذلك بالطبع أمر مضن والحفاء أسهل منه وأفضل بكثير بل وأكثر مدعاة للاحترام، ولكن كيف يتأتى لمبروكة الشيالة وهي أم لخمسة رجال كالفحول وست نساء متزوجات من ستة من أعيان البلدة كل وجيه منهم يناطح الآخر أن ترتدي الطرحة والملس ولا يكون في قدميها حذاء؟ فإن قيل لها: وهل هذا حذاء بذمتك يا شيالة؟ ترد قائلة: «أهو صورة وخلاص... إحنا حنتعايق على آخر الزمن... ما دام صوابع الرجل متغطية خلاص»، فيضحك من يتلقّى هذا الردّ لإيمانه بأن مبروكة الشيالة تدلس على نفسها، مبررة بخلها على نفسها بثمن شبشب تستر به نفسها أمام أزواج بناتها الأعيان على الأقل، لهذا فإن أحداً من أهل بلدتنا لم يوجّه اللوم إلى أحد من أعمامي إذ يعرف كل الناس أن مبروكة الشيالة هي التي تمسك في يديها مصروف الدار توجهه بمعرفتها فتختزنه أو تدفنه في الطين ليوم معلوم. وكانت مبروكة الشيالة تضطر كثيراً لاستخدام الشبشب أو القبقاب لأنها تتوضأ كثيراً. وكل قبقاب في دارنا كانت جلدته تنفصل عن الخشبة بعد أيام قليلة بسبب كثرة وضوء جدتي مبروكة الشيالة، وكنا نتحرج من الذهاب إلى العتقى، ويكتفي الواحد منا كلما احتاج إلى الوضوء أن يدق الجلدة بمسمار جديد حتى تمتلئ الخشبة بالمسامير ويقصر طول الجلدة فيرمى بالقبقاب تحت بير السلم بين أنداده... وحينئذ لم تكن مبروكة الشيالة تتحرّج من انتهاز فرصة جلوس أمي فتختلس شبشبها لتتوضأ به في محل الأدب، فيكفهر وجه أمي ويعلوه الغضب، وتظل تمصمص بشفتيها وتلوي بوزها في قرف إلى أن تعود مبروكة الشيالة تخب في الشبشب بعد أن أغرقته بالمياه وبرطشته ونيّلته بستين نيلة. تنتظر أمي حتى يتخلص شبشبها فتختطفه منفجرة في مبروكة مؤكدة لها أن تترك لها الشبشب في حاله، فإن كشرت لها مبروكة الشيالة ـ ولا بد أن تكشر ـ شخطت فيها أمي منبّهة إياها إلى أن هذه آخر مرة تنبّه عليها فيها، ولا تتورع أن تقول لها: يا مبروكة يا شيالة، دون أن تقول لها: يا أمي ـ باعتبارها حماتها. هنا تنفجر مبروكة الشيالة في أمي لاعنة أباها ـ أبو لحاف ـ وأمها ـ أم صحيفة ـ بألفاظ يقشعر لها البدن حتى ليتفرج علينا كل أهل الشارع بلا استثناء، ويتدخلون بشدة للحيلولة بينها وبين أمي بأي شكل، إلا أنها تظل طول النهار تلعن في أمي وأبي ـ ابن بطنها ـ الذي خاب ونصر عليها بنت أبي لحاف وأم صحيفة. ويقال في محيط حارتنا أن سر هذه الألقاب هو أن جدي لأمي سرق لحافاً ذات يوم، وهي تهمة لم يؤكدها أحد سوى مبروكة الشيالة، وإن جدتي لأمي كانت في الأصل ملاية تجلب الماء للناس بالصفيحة لقاء أجر زهيد، وهي أيضاً تهمة غير مؤكدة لأن جدتي فيما هو واضح بنت عز ولها أقارب في المدينة...

كل هذا جعل أمي تصحو دائماً لشبشبها ولا تمكّن العجوز منه، الأمر الذي كان يتسبب في العراك، فلا تردّ أمي، فتضطر مبروكة الشيالة إلى الوضوء حافية وتعيد مسح قدميها بجلبابها قبل الصلاة، ثم تختم الصلاة بالدعاء عليّ لأنني زعمت أن العتقى رفض تصليح شبشبها وتتهمني وتتهمه بأننا أولاد كلب سل مل، وأننا ـ العتقى وأنا ـ لن ننجو من عذاب جهنم بسبب ما تلاقيه من عنت في الوضوء...

ذهبنا ذات ليلة بربطة المعلم لزيارة عمتي الكبيرة «سعدية» المتزوجة في غربي البلد من الحاج بكري تاجر الحبوب، الثري الذي يلبس كل يوم شبشباً جديداً يناسب طاقم التوب والصديري والطاقية، فما بالك بزوجه وأولاده؟ يشاع في البلدة أن العتقى يذهب بنفسه إلى الدار ليفصل لهم الأحذية على مقاسهم. كانت الزيارة تضم أبي وأمي وثلاثة من أعمامي وزوجاتهم. كنا وفداً كبيراً تتقدمه مبروكة الشيالة بشبشبها المزعوم الذي أصرّت على تعليقه في أصابعها. ولم يكن أبي يقيم وزناً لذلك ربما ليقينه أن مَن يرى أمه مبروكة الشيالة فإنه بالتأكيد لن ينظر في قدميها، فالملس الأسود المبقل في مستطيل متكرمشة متعرجة بالخياطة ينساب زاحفاً على الأرض مدارياً قدميها، ووجهها الذي تمر على لفة الطرحة بملامحه المتكرمشة في تناسق غريب، والمتشققة كصفحة عجين خمران أو كتشقق البياض على جدار رطب، حيث تطل من بين ثنيات الوجه المتجاورة عينان قويتان كعيني تمساح مفترس، لكن لطف الوجه وطرافة الزمن المتراكم فوقه يقلّل من وحشية العينين.

كانت الحصر مفروشة على أرض دوار البيت وفي المندرة المواجهة سجاجيد. فتعيّن علينا أن نميل كلنا دفعة واحدة لنخلع أحذيتنا ونتركها على العتبة قبل الدخول، هكذا فعلنا إلا مبروكة الشيالة حركت ساقيها وهي واقفة ثم دلفت إلى الداخل. غير أننا بالطبع لم ننتبه إلى قطعة الجيفة المترهلة التي تركتها على العتبة تائهة بين الشباشب والبلغ والأحذية، أما حذاء أبي الأبيض على بني فقد طواه أبي وحده على مقربة منه كما يفعل في المسجد. تعشينا وشربنا الشاي ثم القهوة ثم قزقزنا كيلة سوداني محمص، وقزقزنا أيضاً في سيرة كل أقاربنا غير الحاضرين متهمين إياهم بالمروق والعصيان وما شئت من تهم، وضحكنا حتى دمعت عيوننا من مبروكة الشيالة وأرائها المتطرفة في معظم كبراء البلدة. وإذا بكلب الدار وكان أمامنا منذ وقت يقوم بجهود بهلوانية نشيطة في مربع الأحذية المتناثرة أمام العتبة، كأنه يؤدي رقصة شيطانية غاضبة. فانتبهنا إليه أكثر، فإذا به ممسك بفردة من شبشب مبروكة الشيالة بين مخالبه يتشممه ويحاول النفاذ بأسنانه فيه فلا يستطيع فيفعل حركات غاضبة «ويهوهو» في يأس ثم يعيد الكرة من جديد. فقامت إليه عمتي سعدية وهي تتبختر وتهز كفلها، طردته ثم أمسكت فردة الشبشب بأطراف أصابعها في تأفف قائلة: «إيه القرف ده... جايبة لنا منين القرف ده إلاهي ينيلك... إمشي بقى من هنا داهية تقرفك»، وألقت بالفردة إلى بعيد في حوش الدار، ثم إذا بها تنتبه إلى الفردة الأخرى أو ما هو مفترض أنه فردة، فبان عليها الاندهاش ونظرت حواليها قائلة: «دا جايب فردتين كمان... إلاهي تتنيل بنيله داحنا منضفينك على الغالي»، ورمتها هي الأخرى في الحوش. فانسحبت من لساني قائلاً: «دا شبشب...» لكنني تلقيت قرصة موجعة من جدتي مبروكة ونظرة قاسية من أبي فأمسكت عن القول. فصاحت عمتي سعدية في كثير جداً من الحرج: «بتاع حد فيكم؟ مش معقول» ثم استدرجت في حرج



باسم: «بتاعك الشبشب ده يا امه؟» واتبعت ذلك ببسمة عارفة بكل شيء. لكن مبروكة الشيالة انفجرت فيها بكل كبرياء «فشر... أنا برضه ألبس القرف ده... داهية تسم بدنك وانتي قليلة الحيا معندكيش ريحة الأدب... اخيه»، ولوت بوزها لمدة دقيقة ثم استطردت تحكي ما كانت تحكيه من أخبار أهل زمان. وكنا نكتم ضحكاتنا طوال الجلسة، فما إن خرجنا إلى الشارع، وابتعدنا عن دار عمتي سعدية حتى انفجرنا في الضحك وأبي يشخط فينا بجدية فنحول الضحك إلى رعشات بدنية نزقة شملتنا جميعاً حتى أبي هو الآخر وحتى مبروكة الشيالة نفسها...

وكنا نظن أننا قد استرحنا الى الأبد من شبشب مبروكة الشيالة، لكنني في صباح اليوم التالي فوجئت بها تناديني وتقرصني من أذني آمرة إياي في جدية وجهامة أن أخطف رجلي إلى دار عمتي سعدية وأحضر لها الشبشب، فلم أجد مفراً من الذهاب، ولما سألت عمتي سعدية عن شبشب مبروكة الشيالة ابتسمت وأخرجت من البورية شبشباً نصف قديم أمرتني أن أدسه في عبي وأعطيه لجدتي مبروكة. فعدت به طائراً ووضعته بين يديها في حضرة أبي وبعض أعمامي قائلاً لهم ما حدث، فراحوا جميعاً يتفرجون عليه ويتفحصونه بدقة كأنما يقيسون حجم الهدية بالميزان الحساس أو كأنهم سيشترونه بأغلى الأثمان. أفتى أبي بأنه محتاج إلى لوزة صغيرة في الجنب تداري هذا التآكل، وأفتت أمي بأنه محتاج نصف نعل، وصرح عمي بأنه يكفيه مسمارين في النعل ومسمارين في الكعب، ثم قالوا لها جميعاً كأنهم يتنازلون عن حق كبير لهم: «زي بعضه بقى البسيه وخلاص... مبروك ع الأرض». وقالت مبروكة الشيالة: «ألبسه ازاي بقى ما انتوا شركتوه». وقال أبي: «معلهش تصليح بسيط ويبقى عال دا جامد قوي». وهكذا انضم شبشب مبروكة الشيالة من جديد إلى صرّة الأحذية التي يتعيّن عليّ أن أذهب بها إلى العتقى في سوق البلد أو في داره أو عند المسجد الجامع إن كنا يوم جمعة.

عم «محمود عيد» كان هو العتقى الوحيد في بلدتنا رغم أنه ليس له دكان، فدكانه هو بيته، حيث ندخل من العتبة فنراه يفترش وسط الدار، جالساً بجسمه الضخم وكرشه الكبير فوق مقعد واطئ عليه شلتة صلبة مزيتة، وبين ركبتيه سندان عبارة عن قضيب من الحديد معووج عوجة ممتدة إلى الأمام مبططة، يدخلها في بوز الحذاء جاعلاً النعل فوق، وطاولة صغيرة محندقة قديمة متآكلة عليها أكوام من المسامير الدقيقة وعجينة لاصقة وشاكوش ومخرازين أحدهما سرح والآخر ملتو، وبضع كرات من الدوبارة، وقطعة يشمع بها الفتلة بعد لضمها في ابرتين، إذ أنه يخرم الجلد والنعل بالمخراز ثم يدخل الابرتين متقابلتين في نفس الخرم واحدة من الداخل والأخرى من الخارج ويشد الفتلة جيداً، ثم يعود فيدق بالشاكوش فوق الخياطة أو فوق مسامير النعل، وحوله كومة من قصاصات جلدية مختلفة الأشكال والألوان والأحجام مخيطة في بعضها كلما احتاج إلى لوزة قصها من إحدى القصاصات، وكومة أخرى من الأحذية الكالحة المتفتقة التي لا يمكن للمرء أن يصدق بأنها سوف تدخل في الأقدام من جديد لتمشي بها فوق الأرض، والمؤكد أن عم محمود عيد سيحتاج منها إلى قطع غيار يصلح بها أحذية أخرى...

كنت أحب عم محمود عيد مثلما يحبه كل الناس، وأجد متعة كبيرة في الجلوس بجواره ريثما ينتهي من إصلاح حذاء أبي على الأقل ليذهب به إلى شغله ولا بأس من إرجاء الباقي من الأحذية يومين أو ثلاثة كما يحب. أتفرج عليه كيف يعالج ثقباً أو فتقاً في جانب من وجه الحذاء بحيث يستطيع اخفاءه عن الأنظار ما أمكن. إنه يؤجل تركيب لوزة لحين الوثوق من أن الخياطة المجردة للفتق سوف لن تفلح في جمعه وتمتينه، فرغم أن الفتوق دائماً أوسع من قدرته على العلاج بدون لوزة، فإن صاحب الحذاء ما يكاد يرى اللوزة حتى يكفهر وتحمرّ عيناه ويبرطم: «عملت لوزة ليه؟ أهي كده حتبان وحيبقى شكلها غلط». يؤمن العتقى على كلامه مؤكداً أنها بالفعل مثل الدمل في وجه الحذاء ولكن ما حيلته؟ ولكن يرضى صاحب الحذاء يروح يضرب بالشاكوش فوق اللوزة حتى يبططها قدر الإمكان ويجعل خيط الغرز يغوص في لحم الجلد ويداريه بمزيد من الصبغة. وقد علمت من طول جلستي بجواره ومشاهدة احتياجات الزبائن واحتجاجاتهم أن العيب لا يمكن مداراته بدق شاكوش أو ثقل صبغة، يظل العيب لوزة منتفخة في الجنب كدمل قبيح أو غرزاً تبدو خيوطها محفورة في النفس. لذلك أصبح أكره منظر اللوزات ومنظر الغرز البارزة في أي شيء.

ثم إنني قلّلت من سخطي على مبروكة الشيالة إذ وجدت في جوار العتقى محمود عيد كثيراً من أمثالها رجالاً ونساء كفيلين بتطليع دين العتقى من الطلب المستحيل، وكنت أهز رأسي موافقاً في صمت كلما تزربن العتقى وسبّ وشتم في الزبائن ذوي الرؤوس الناشفة: «الواحد منهم يتصور أن بامكاني إعادة الحذاء كما كان يوم اشتراه... بهائم ترتدي أحذية فكيف لا تذوب... يخوضون بها في الوحل والغيطان ويمشون كخطو العفاريت... أقدام لم تتعود على لبس الحذاء... إن الحذاء لا يذوب من طول الزمن ولا من كثرة الاستعمال ولا من وعثاء الطريق بل تذوب من مسّ أقدامهم المفرطحة المتشققة التي جبلت على الحفاء وعلى الحنين إلى ملامسة الأرض... ما من أحد فيهم مهما كان مترفهاً إلا ويضيق بزنقة الكعب في الحذاء فيطوي مسند الكعب ويجعل من الحذاء بلغة يسهل خلعها ويسهل على القدم التحرك داخلها... يذوب الحذاء من منطقتين، من موضع أصبح القدم الصغير حيث أنه ليس أصبعاً كأصبع خلق اللّه بل قطعة صلب مدببة تنخر في جلد الحذاء حتى تفتقه في مشوار أو مشوارين، ومن البوز، حيث يضرب الواحد منهم في سيره خبط عشواء، فهو ينقل الخطو كيفما اتفق وليرتطم بوز الحذاء في صخرة أو نتوء أو درجة سلم أو حتى جدار يتفتق البوز بعد أن يذوب النعل من تحت الجلد، ثم يتآكل الكعب غيظاً وغضباً من سوء بخته تحت هذين الكعبين الصخريين فيذوب حسرة وألماً... ويجيء الهلف منهم كالشحط ليطلب مني أن أعيد له الحذاء جديداً كما كان... هذه البلغة مثلاً ماذا أفعل لها وقد تآكل ثلاثة أرباع نعلها... يلزمها نعل كامل، وثمن النعل الكامل يكاد يقترب من ثمن بلغة جديدة... إذن فعليّ أن أصنع له نعلاً من الكاوتش الثقيل وفي هذه الحالة سوف أدقه بالمسامير لابد...»...



يلوي صاحب البلغة شفتيه في اشمئزاز ويقول في فجيعة:

ـ معملتهاش خياطة ليه؟

يعتدل محمود عيد نصف اعتدالة كأنه سينبئ بشيء سبق أن قاله عشرات المرات:

ـ الخيط ما يستناش في الكاوتش يا أبا.

وحقيقة الأمر يا عم محمود أنك تستسهل دق المسامير عن الخيط بالإبرة. هكذا أسأله في بساطة. فينظر لي نظرة ذات معنى مصحوبة بابتسامة مَن انكشف، يقول: «أي واللّه يا ابني يعني أنت بتقول فيها؟... ما هو أزيد من القرشين تلاتة مش حيدفع... ودي عشان أخيطها بالإبرة والمخراز عايزه لها نص يوم... أشتغل نص يوم بقرشين صاغ؟ طب وده يبقى عدل منين؟»...

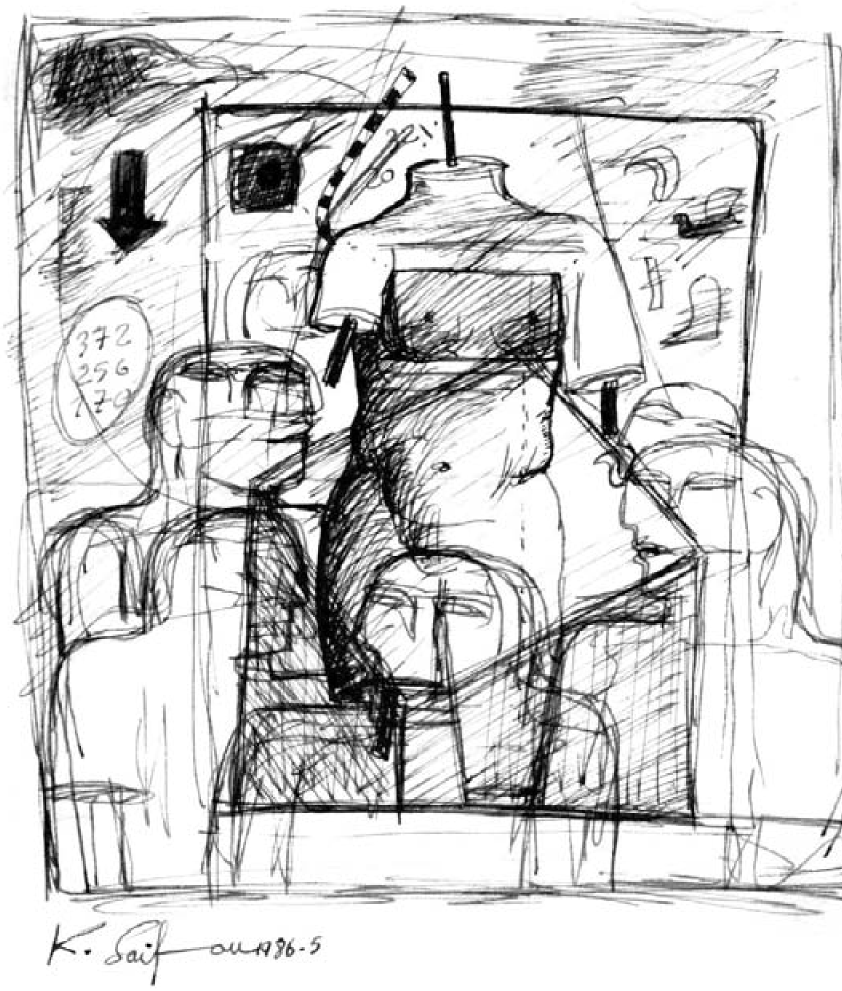
كل من تعارك مع محمود عيد العتقى أو رفع صوته عليه يعرف مثلما يعرف محمود عيد أيضاً أنه عائد إليه لا محالة. ولهذا فهو يدق على المسامير كأنه يدق على كل تحد يمكن أن يواجهه:

ـ «صنف ابن العرب والمصري بالذات حمال آسية... أو قل أنه عدم المؤاخذة تعود على الحمورية... مع انه ذكي وليس حماراً أبداً... إنه يشبه الحمار في قدرته على احتمال الأحمال الثقيلة... ولا يبالي... يمشي في اليوم الواحد عشرة آلاف كيلو رائحاً غادياً... وكل ما هنالك أنه إذا ما جلس تأوه بعمق، ثم يهون عليك أثر الآهة قائلاً: أصل يا أخي الجزمة فيها مسمار تاعبني قوي... وهو صادق... ففي الجزمة لا بد أكثر من مسمار ينغره بسنه في راحة كف الرجل أو بين الأصابع أو في أي مكان... يدخل الواحد منهم عليّ لاهثاً يتصبّب العرق من جبينه، يجلس على الأرض أو يقف مترنحاً ويخلع الحذاء وهو يكاد يدمع: والنبي تدق لي على المسمار ده خبطتين... حاضر... ادخل يدي في الحذاء لأتحسس رؤوس المسامير... تصطدم بأكثر من رأس بارز... أدق فوقه حتى يختفي تماماً... ثم أعطي الحذاء لصاحبنا فيلبسه ويمشي ليفاجأ بأن أسناناً أخرى قد برزت من جديد وراحت تنغزه في قدميه... إن المسامير لا تدق في الجسم الرخو أبداً... إنها لا تستقر إلا في جسم صلب... أعرف هذا وأختار الكاوتش الناشف الذي لا يفهمه الجهلاء هنا إذ هو كاوتش طائرة... صحيح إنه سوف يتشقق بعد مشوارين أو ثلاثة ولكن ما باليد حيلة».

على أن أهم شيء علقني بشخصية محمود عيد العتقى كان وعداً قطعه على نفسه ذات يوم حينما بكيت لأبي أمامه طالباً حذاء مثل أخي التلميذ، فلم يهتم أبي لبكائي فانتحبت فصالحني عم محمود عيد بأن قام وأخذ مقاس قدمي بالمازورة وكتبه في ورقة، وحلف برحمة أبيه أن يفصّل لي حذاء أبيض على بني مثل حذاء أبي بالضبط، ولما نظرت في عينيه مدقّقاً ولم أجد فيهما كذباً صدّقته، وبتّ أتحمّس لمشوار العتقى كل بضعة أيام لكي أذكره بوعده وأقضي معه ساعات طويلة أتخيله في كل لحظة منها وقد نهض من جلسته الأبدية ليحضر لي الحذاء من مكان ما داخل داره الواسعة... وذات يوم كنت أمر صدفة في شارع داير الناحية فلفت نظري دكان جديد مطلّ على الشارع يقول لك بالفم المليان: أنا دكان فاحسدني، ذلك أن أصحاب الدكاكين في بلدتنا



مصابون بعقدة الدكان، إذ أن معظم دكاكينهم كانت في الأصل منادر أو غرف مطلة على الشارع وافتتح لها باب. أما هذا الدكان فهو دكان صريح، ذلك كان دكان الأسطى خليل الذي عرفت أن مهنته تفصيل الأحذية الجديدة، كانت حوائطه تمتلئ بقوالب أحذية من الخشب الصلب الناعم تتعلق متجاورة بمسامير. كنت أدهش من منظرها وأحاول معرفة دورها، لذلك سعدت يوم تلكأت أثناء عودتي من المدرسة ورحت أنظر جيداً داخل الدكان، فرأيت بعضاً من هذه القوالب ملفوفة بجلد مشدود عليها بمسامير متجاورة كشعر القنفذ، ومتراصة على طاولة صغيرة كطاولة عم محمود عيد،



حافلة بنفس ما تحفل به، خلفها يجلس الأسطى خليل بجسمه التخين المربع ووجهه الأحمر الغليظ الذي يبك منه الدم ويتساقط عليه العرق مدراراً على الدوام فيما هو يتنفس بصعوبة وصدره يعلو ويهبط، والمريلة المزيتة الكالحة تتدلى من حول عنقه مغطية كرشه المستدير. كان أبهج شيء ضحكت له طويلاً هو اكتشافي أن الأسطى خليل يجعل من كرشه مسنداً متاحاً، حيث يضع فوقه القالب المشدود عليه الجلد ويروح يدق المسامير بالشاكوش في طرقات شبه موسيقية: ط ط ط طم.... طم فإذا انتهى من الفردة رماها وتناول شقيقتها وهكذا. كان صامتاً على الدوام، حتى إذا ألقى عليه السلام أحد رفع وجهه فيتصاعد شخيره، ويبربش بعينيه مغمغماً بهمهمة غير مفهومة ثم يستأنف الدق من جديد. كان الأسطى خليل العتقى حرياً بأن يستهويني أكثر من محمود عيد، فهو الذي يفصّل الأحذية الجديدة وربما فصّل لي حذاء بسعر زهيد يستطيع أبي دفعه. لم يكن في الأصل من بلدتنا إنما هو قادم من إحدى المدن بعد أن ضاق رزقه فيها لكثرة الحذّائين، فجاء بلدتنا متعشماً في رزق وفير حيث لا حذّاء غيره فيها، ويقال أنه اختار بلدتنا لصلة نسب قديمة أتاحت له استئجار هذا الدكان. ولم يكن له زوجة إنما كان له ولد شاب اسمه عبد الصمد، لا يفارقه في معظم الأوقات، يشارك أباه في تركيب النعال، ويوالي كنكة الشاي على وابور السبرتو ويتركها تغلي حتى يتبخّر نصف الماء ثم يصب لنفسه ولأبيه كوبين من الصاج تتصاعد منهما رغوة وفقاقيع مخملية، يشفط كل منهما باستمتاع كبير، أما عبد الصمد فيشفع الشفط بشد نفس من الدخان. كان عبد الصمد رفيع الجسد مصفرّ الوجه مسبل العينين إلا عندما يضطر إلى التحديق في الطريق، وكان لطيفاً، تظنّه مريض النفس من فرط اعتلال الجسد والوجه لكنك إذا جالسته كشفت عن ضحوك يرسل النكت الجديدة على الدوام، ويقال أنه عائد من المدينة بمحصول وفير منها. وكل شبان البلد كانوا يصاحبونه ومع ذلك يتحرجون من مخالطته لسبب وحيد هو شربه للسجائر أمام أبيه وكانوا يعذرونه ملقين اللوم على تربية المدن التي هي في أنظارهم دائماً فاسقة فاجرة كافرة. الطريف أن الأسطى خليل هو الآخر كان يخشى على ابنه من مصاحبة أولاد البلد الذين هم في نظره لا أخلاق لهم فضلاً عن أنهم جهلاء غليظو الألفاظ وقد يفسدونه أو على الأقل يعطلونه عن العمل، والعمل في نظره يعني الولاء للقعدة في الدكان حتى ولو لم يكن ثمة من عمل فيه. يجن جنونه إذا نظر حوله فجأة فلم يجد عبد الصمد أو لو غاب قليلاً في مشوار أرسل إليه، حينئذ يزيح نفسه عن الطاولة ويخرج إلى الشارع، فيقف أمام الباب قليلاً يبربش بعينيه في عمق الطريق، ثم يتململ زاحفاً شيئاً فشيئاً على مهل، ويظل يدفع جسده القصير الأكرش، وينتفض وجهه الغليظ المليء بالشعر، ولايني يصيح بين كل خطوة وأخرى في صوت مسرسع مشروخ: «يا عبد الصمد... يا واد يا عبد الصمد». فإذا لمحه جالساً مع أحد أو لاعباً مع كوكبة أتبع صياحه «يا عبد الصمد... يا ابن ديك الكلب»، ونضحك نحن ونروح نقلده باتقان فيضحك كافة المشاهدين. ويتضح أن عبد الصمد كان قد سمعه منذ أول صيحة وحلا له أن يتجاهله أو يدبر للهروب منه، لكنه بصوت مشروخ مثل صوت أبيه وأعرض يصيح فيه بكل غيظ وحقد: «عايز ايه... عايز مني ايه... غور بقى من قدامي وأنا جاي وراك... حاروح منك فين». فيقف الرجل منتفضاً من الغضب ويزداد وجهه احمراراً وعينيه بربشة واتساعاً، يتفتف قائلاً بعصبية وكرامة مهيضة: «اخص عليك وعلى تربيتك... اتفوه»، ثم يستدير مستأنفاً الرجوع في بطء وهو يمسح شفتيه من بقايا البصقة، ويبقى عبد الصمد متكوراً على نفسه لبرهة وجيزة ثم يلوي شفتيه في تعجّب وحيرة ولا مبالاة، ثم يلحق بأبيه فيصل الدكان قبله...

ولسنا نعرف على وجه التحديد لماذا وقف حال الأسطى خليل وحلّ به الكساد، لدرجة أنه كان يمضي النهار وشطراً كبيراً من الليل جالساً ينش الدبان عن وجهه بمنشفة عتيقة متآكلة الأطراف. المثير للغرابة أن أهل بلدتنا يقدسون «التفصيل» تقديساً لا يطاوله الا احتقارهم لمبدأ «السوقي واشمئزازهم من الكلمة نفسها. الرجل منهم حين يلبس بلغة جديدة يجتهد أن يراها الآخرون تأهباً لاستماع السؤال التقليدي الذي لا بد أن يسأله كل مَن يراها: «سوقي؟» هنا يلوي صاحبها رأسه في استنكار صائحاً كأنه يدفع عن نفسه تهمة مشينة: «لا... تفصيل» ويمط حرف الياء إلى ياءات عديدة تؤكد مدى صدقه واستنكاره لشغل السوقي الذي يباع في السوق جاهزاً داخل علبة كرتونية يرى أهل بلدتنا المغرمون بالتفصيل أنها من قبيل النصب على الزبون والضحك عليه بالعلبة. أذكر أن أهل البلدة حين فوجئوا ذات صباح بعيد بدكان الأسطى خليل مفتوحاً للتفصيل الخاص توقعوا كساداً محققاً يحل بعم محمود عيد. وكان الوضع يشي بذلك فعلاً حينما لاحظوا أن دكان الأسطى خليل قد انشغل ببضع أعداد من الأحذية الجديدة كان أصحابها يذهبون إليه في مهرجان، مرة لأخذ المقاس وأخرى للضبط وثالثة للاستلام، وكانت الأحذية المرصوصة في الدكان تحت التشطيب معروفة لكل فرد في البلدة، فهذه جزمة فلان وتلك بلغة علان وذاك شبشب فلانة. ولقد خرجت من الدكان دفعات كثيرة كان معظمها لأعيان من بلدتنا والبلدان المجاورة التي تعتبر يوم سوق بلدتنا يوم سوقهم، فيزورون بلدتنا بالمحاصيل والدجاج والجبن ويخرجون منها بأثواب القماش ولفائف العجوة والبرتقال والهريسة وأم الفلافل الساخنة. وقد ألفنا أن تزدحم جميع دكاكين بلدتنا يوم السوق إلا دكان الأسطى خليل، لم يعد يزدحم مطلقاً لا في يوم السوق ولا في غيره من أيام، بل أصبح من المألوف أن يبدأ يوم السوق بارتفاع صوته المسرسع المشروخ مجلجلاً رغم ذلك مغطياً على نداءات الباعة وصيحات الفصال، يلعن الباعة الذين يصرّون على فرش بضاعتهم أمام دكانه ليتجمع زبائنهم يسدون عليه باب الرحمة، وكلما أفلح في اجلاء واحد فوجئ بغيره، فيشرع في الزعيق من جديد بكل عصبية وانفعال وتوتر، فيما يكون عم محمود عيد افترش مكانه المعهود في مدخل السوق يتلقى وفود الصرم والبراطيش القادمة مع رواد السوق من الغرباء، حيث يصلحها على الفور بصبر وحرفنة يساعده ابنه حنفي، ويتلقى العطايا كل ثانية حتى يمتلئ درج الطاولة امتلاء ينافس أدراج الباعة. بجواره مباشرة يتربع صانع الأختام القادم من المركز، أمامه طبلية مفروشة يرتص فوقها عدد من الأختام النحاسية الخام، وفي حجرة دفتره الكبير المستطيل، كدفتر التموين، إذا جاءه مَن يطلب خاتماً سجل اسمه في الدفتر ممهوراً ببصمته، ثم يروح يحفر له اسمه بمبرد على أحد الأختام، ثم يختم به في الدفتر بجوار البصمة ثم يسلمه لصاحبه.

كان هو وعم محمود عيد صديقين حميمين إذ يجلسان أمام بعضهما هكذا طوال ثلاثين عاماً أو يزيد، وكانا بارعين في التنكيت على بعضهما ويمسكان لبعضهما على الواحدة خاصة عند ازدحام أحدهما بالزبائن. وكان صانع الأختام يتباهى على عم محمود عيد قائلاً في تفاخر أنه يصنع للناس شخصيتهم، فالشخص دون الختم لا يساوي شيئاً إذ أن خاتمه هو توقيعه هو مصيره. فيرد عليه عم محمود عيد قائلاً أن الختم الحقيقي هو ذلك الذي يصنعه، فنصف النعل هو البصمة الحقيقية للانسان إذ هو يستطيع أن يعرف كل إنسان من خلال نعله فحسب، يكفي أن يغمض عينيه ويتحسس النعل لينطق باسم صاحبه في الحال، ولا يقطع عليهما حبل المفاكهة اللذيذة سوى هدير صوت الأسطى خليل الذي يصب على السوق كله جام غضبه ناضحاً بالغل والحقد الشديدين...

شاعر البلد لا يسليها هذا صحيح، مثلما أن مغنيها لا يطربها. ولقد حدث، إذ كانت عملية تفصيل الأحذية هذه في نظر أهل بلدتنا أمراً محفوفاً بالغموض اللذيذ، فالواحد منهم يذهب إلى المدينة ليعطي مقاسه للحذاء ولا يعود إليه إلا بعد أيام ليتسلم حذاءه، فهو إذن يرى الحذاء وهو حذاء بالفعل معد للبس مباشرة مدهون ولامع وجميل. أما عند الأسطى خليل فإن الشخص كلما فات على الدكان حود ليستحث السطى على الانهاء، فيرى الأحذية وهي في مرحلة التفصيل في حالة لا تسرّ ولا تقنع أحداً بجدية التفصيل، فيخيّل إليه أن الأسطى خليل «يطصلق» في شغله، ومهما أتقن الأسطى خليل وأعطى حذاء ممتازاً فإن صاحبه لا بد أن يظل ينظر فيه بتشكك وعدم اقتناع، لوقت طويل، أما إذا تفتق الحذاء بسرعة ـ وكثيراً ما تفتق ـ فإن صاحبه يعود إلى الأسطى خليل ويظل يتعارك معه ساعات طويلة تنتهي بأن يرمي صاحب الحذاء حذاءه على الطاولة أمام الأسطى خليل قائلاً: «الجزمة دي ما تلزمنيش»، فما أن يستدير بظهره حتى يكون الأسطى خليل قد طوح بالحذاء على طول ذراعه في قلب الشارع صائحاً كالمواء المجسد: «ولا أنا... هي دي رجلين بتاع لبس جزم برضه؟... دا جلد رجليك نفسه متفتق». يضطر صاحب الحذاء إلى لمّ حذائه وارسال الشتائم المقذعة إلى الأسطى خليل، الذي لا يعيرها أذناً صاغية ويظل صاحب الحذاء يلعن طوال الطريق متأبطاً حذاءه، فكلما مرّ بقوم استفسروه عن الغضب، فيتوقف ويحكي، فيلوون شفاههم ويضحكون، وهكذا حتى يصل إلى دار محمود عيد في حارة سد متفرعة من شارع الزغالوه، حيث يرمي بالحذاء أمامه مستكملاً شتائمه في الرجل الضلالي الغشاش الذي لن يرد على جنة. يعرف محمود عيد المسألة ولهذا لا يعبأ بالأمر لأول وهلة، يظل برهة طويلة مبدياً عدم الاهتمام إلى أن يفرغ مما في يده ببطء، يتناول الحذاء المتفتق ويقلبه ظهراً لبطن ثم يلوي شفتيه في اشمئزاز وطيبة مغمغماً:

ـ «سبحانك يا رب... كل شيء جديد بيقدم ويبقى حلو... إلا اللي يقدم وهو لسه جديد... أخاف منه موت... إذا كنت أنت لسه جديد جايني أعمل بيك إيه... أنت لحقت تقدم؟... الأكاده بقى أني ما أعرفش أصلح غير القديم بس... يبقى سهل... معروف أنه قديم والتصليح فيه شرعي ويبقى مقبول... إنما الجديد أصلحه إزاي؟ ما اقدرش طبعاً أرجعه جديد... وعشان هو لسه جديد وأنا أصلح فيه حيطلع من تحت إيدي قديم رسمي، مختوم بالختم... وترجع تقول محمود عيد شوّه منظر الجزمة».

ثم ينحي الحذاء جانباً كأنه لم يقتنع بقبول الصفقة بعد. وهنا يقول صاحب الحذاء المعطوب

ـ «يا عم اللي انت عايزه... بس عايزها تبقى نضيفة وحلوة». يشوح محمود عيد بأصبعه الغليظة الملطشة بالصبغة والقشف صائحاً من خلال حشرجة في صدره:

ـ «أهو شفت... أديك انت قلت عايزها نضيفة... أنا ما أقدرش أخبي العيب أبداً مهما كنت أسطى... بالعكس... دا يمكن بابين العيب أكثر».

هنا يحس صاحب الحذاء بالاحباط وينطق وجهه بالأسى، وربما دلدل شفتيه صامتاً، فإنه لشيء ممض حقاً أن يكتب على المرء لبس حذاء قديم دفع فيه ثمن الجديد وأكثر... فرحة ما تمت. لكنه بأخر ما فيه من نفس يائس: «أهو برضه همتك شويه انت مهما كان أسطى»، ثم يمضي مسرعاً خشية أن يفاجئه محمود عيد بشيء جديد يضايقه...

مع ذلك لم يغلق الأسطى خليل دكانه أبداً. وكان الجميع من أهل البلدة يعجبون من استمراره حياً مع ابنه المدخن الشره رغم الكساد التام. كثيراً ما سهر أقوام يتحدثون بشأنه كأنه من بقية أهلهم يحملون هموم معاشه بعد أن يشبعوه سخرية وتريقة طول الليل، وفي النهاية يتفقون على ضرورة العطف عليه. وبالفعل يمر أحدهم على دكانه ومعه حذاء يريد اصلاحه، وما أن يقدمه للأسطى خليل حتى ينظر إليه هذا في اشمئزاز ويزيحه صائحاً: «شيل القرف ده يا جدع انت اجري بيه على الصرماتي بتاعك يلا» بعدها لم يفكر أحد في العطف عليه. وكان من سوء حظه أن شاعر الربابة الذي يتجول في القرى والأسواق لف ذات يوم في بلدتنا مغنياً على الرباب في مجالس عدة أغنية أظنها من السيرة الهلالية على لسان الجازية إن لم تخنّي الذاكرة، تقول: «يا دكان الأسطى خليل... يا دكان يا سيد الدكاكين... يا دكان لو كان جيبي فيك... يا دكان دانا لأهدك وأبنيك وأعمل ترابك دوا لعيوني... الخ». منذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الأغنية سلوتنا الوحيدة. نتجمع في كل لحظة أمام دكان الأسطى خليل... يا دكان يا شيخ الدكاكين» وعبثاً يحاول الأسطى خليل طردنا برش المياه أو العصا، فيضطر إلى إغلاق الدكان والسير إلى خارج البلدة، فنزفّه بقسوة عجيبة: «يا دكان الأسطى خليل يا دكان يا شيخ الدكاكين»، وهو ماض أمامنا كامبراطور من المجر لا يرتعش ولا يهتز، إلى أن يتوغّل في الحقول فنعود إلى البلدة متفرقين...

على أنني حينما ألحقت بالمدرسة الالزامية في العام التالي بصندل العيد الفائت وحينما شرع أبي يفكر تفكيراً جدياً في تفصيل حذاء لي، بدأت أذب الأولاد عن معاكسة الأسطى خليل، وأريه نفسي عند ذلك طمعاً في إقامة جسور الود، إذ سمعت أبي يقول: «واللّه حافصلها لك إن شااللّه عند الأسطى خليل... راجل بتاعنا وعلى قدنا... وأهو يستنفع». لكن الأسطى خليل لم يكن يعبأ دفاعي عنه بل كان يهشني أنا الآخر في النهاية مما يجعلني أعود إلى الدار تحتبس في حلقي دموع متحجرة. وكنت كلما فكرت في الانتقام منه تذكرت وعد أبي ونهيت نفسي. إلى أن جاء يوم فوجئنا فيه



بناظر المدرسة يطلع علينا في طابور الصباح ذات يوم ويلقي علينا بياناً لم أفهم منه شيئاً ولا صحبي كذلك، اختتمه بالتنبيه علينا بأن يجيء كل منا في الغد ومعه قرش صاغ واحد. فلما عدنا وأبلغنا أهالينا بهذا الطلب الغريب فوجئنا بأن البلدة كلها تتكلم في مشروع جديد استحدثته حكومة الوفد اسمه مشروع الحفاء، ومعناه أن الحكومة ستفصل أحذية لكل أبناء المدارس على نفقتها الخاصة في مقابل قرش صاغ واحد يدفعه كل تلميذ لزوم المساهمة في المصاريف...

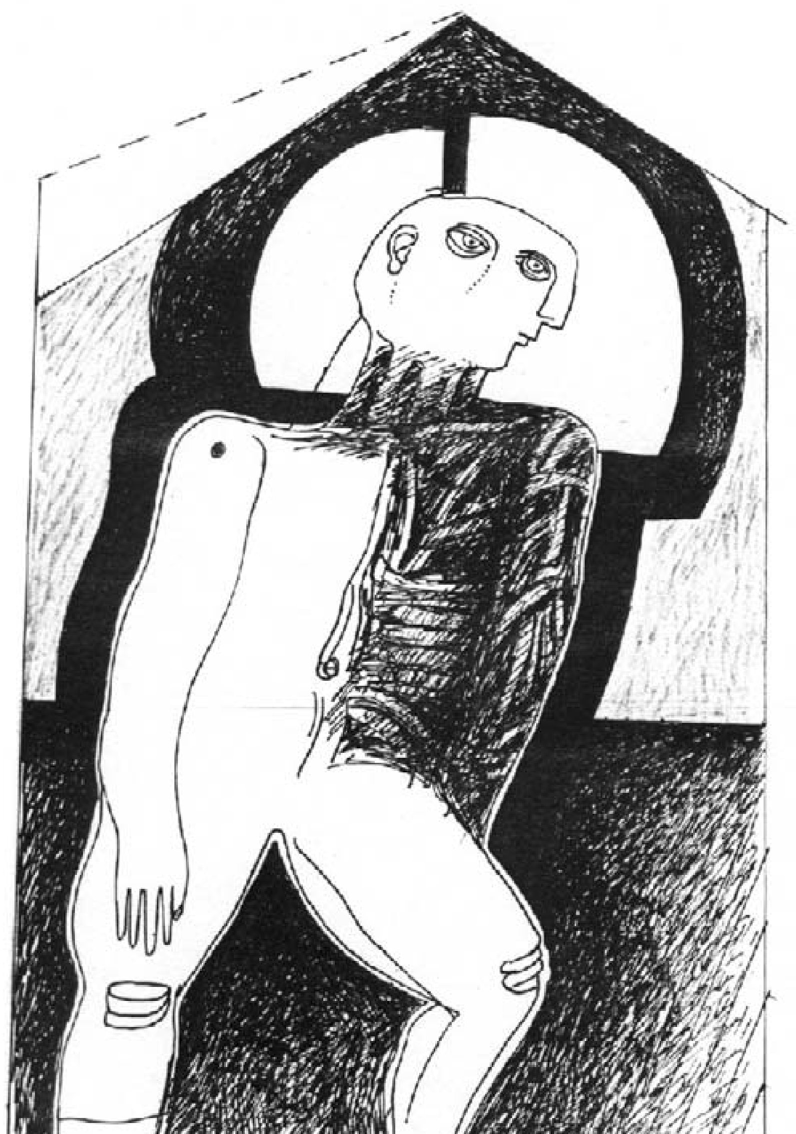
«طرمخ» أبي على مشروع القرش أياماً طويلة تلقيت بسببها زجراً وتعنيفاً من الناظر، الذي كان يمر علينا كل يوم بجسده القصير الممتلئ وجبته وقفطانه وعمامته، وعينيه الضيقتين القاسيتين فيتوقف لدى كل واحد منا يستفسر عن مجيء القرش، ثم يقرصني في أذني كأنما في أصابعه كماشة تجعلني أجأر بالصراخ والعويل وهو يزأر فيّ قائلاً: «انتو ايه... عايزين تتعلموا ببلاش... كل حاجة ببلاش حتى الجزمة؟ داهية تسم بدنكم». ويقول أبي حينما أنقل له ذلك: «أنا عارف قرش ايه وبتاع ايه اللي الحكومة طالعه لنا فيه ده، ما إذا كانت عايزة تعمل خير تعمله وخلاص... ولاّ يعني الحكومة أخذت على الأخذ؟ مفيش عندها غير قولة هات؟ داهية تسم بدنهم هم راخرين». فأصابني هم وغم شديدين، حتى كنت من فرط الشعور بالمهانة والذل أقضي الليل كله نائماً دون حراك أستقبل الكوابيس المخيفة التي تشبه كلها وجه حضرة الناظر. وقد سمعتني أمي وأنا أهذي من خلل النوم فربتت على ظهري وبكت، ومن عندها أفرجت عن عشر بيضات من بيض دجاجها الخاص باعتها لخالة «راضية» التي تمر كل يوم منادية: «ياللي حداها بي... ى... ض». وقد أصررت على دفع القرش لحضرة الناظر شخصياً فلما دخلت عليه مكتبه المنعزل جوار الباب صائحاً: «امشي عمى في عينك... روح ادفعه للمدرّس بتاعك». فدفعته للمدرّس وأمليته اسمي عدة مرات حتى زهق وصاح في «خلاص عرفنا بقى».

بعد أسابيع طويلة تلقّينا الأمر بالوقوف صفّاً في حوش المدرسة لأخذ المقاس. فاهتزت أعطافنا وزاطت المدرسة فجأة زئيطاً عظيماً عجز المدرّسون عن اخماده إلا بالخيزرانة النشيطة اللاسعة. فلما اصطففنا كنا نتحسس مواضع الوجع كأننا نتهرش. فيفاجئنا اللسع من جديد. فنقف متخشبين وقفة عسكرية. أمامنا من أول الصف وقف رجلان وخلفهما هيئة التدريس برمتها. صار الأفندي الغريب ينحني على قدم كل منا ويقيسها بالمازورة ثم يصيح برقم يدوّنه الأفندي الآخر في دفتر بعد أن يسأل واحدنا عن اسمه وسنّه وسنته الدراسية. أنفقنا في هذه العملية بضعة أيام كان أهل البلدة خلالها يتسكعون حول المدرسة ويتسلقون أسوارها ليتفرجوا في انبهار يشوبه عدم التصديق، فهم لم يتعوّدوا تصديق أي كلام تقوله الحكومة عن أي مشروع، وتبدو وجوههم لنا عبر حديد السور كأنهم يراجعون أنفسهم في موقفهم من الحكومة ويعلنون الرغبة في التصديق ولكن... أما نشوف.

ظل ذلك الحدث لأسابيع طويلة موضع أحاديث البلدة. وكان محمود عيد يقول في صدق: «كله خير... الجزم الجديدة عمرها ما تقطع رزقي... بالعكس... كل ما يكتر الجديد يبقى القديم زمانه جاي... من مصلحتي أن الناس كلها تلبس جزم... عشان أفضل أنا وغيري نصلح ونصلح». وكانت الأسابيع تتصرم وجثة الأمل في نفوسنا تزداد تيبساً وعفونة، فلقد انقطع الخبر تماماً ولم يعد أحد يتحدث عن مشروع الحفاء. وقرب انتهاء العام الدراسي نبّه علينا أهالينا بضرورة تذكير المدرسة بالقرش... فقيل لنا أن خطأ قد حدث في أخذ المقاس، ذلك أن المتعهد أخذ مقاسنا بالمازورة في حين أن نُمَر الأحذية لها نظام آخر خاص. وقد انتهت أعوام الدراسة كلها ونسينا مشروع الحفاء ولكن أبي لم ينس القرش أبداً.

إلا أن غيظي من فشل مشروع الحفاء لم يكن سببه ضياع القرش فحسب، ولا حرماني من الحذاء الجديد فقط، بل لأنه أفسد عليّ مشروع انتقامي من الأسطى خليل. ذلك أنني بعد أخذ المقاس الشهير مباشرة مررت من أمام دكانه، وخلفي رهط من الأولاد، جمعتهم بشق النفس، ووقفت أمام دكانه متحدياً ألعب حواجبي ولساني وأترقص مغنياً والأولاد خلفي: «يا دكان الأسطى خليل... يا دكان يا أوسخ الدكاكين»، وكلّما هبّ ملوّحاً بسكين الجلد ارتددت. حتى إذا ما جلس واطمأن رجعت إليه مصفقاً مردداً: «يا دكان الأسطى خليل... يا دكان يا فقر الدكاكين» وهو يجعر في غضب حتى لتكاد عروق رقبته تنفجر «امشي يا ابن ديك الكلب... داهية تلعنك وتلعن أبو اللي مربينك»، فأخرج لساني صائحاً: «اووو» ثم أجري، فيجري ورائي حتى ينقطع حيله فيقف يسأل الناس عمن يكن أبي ذلك الحمار الذي لا يحسن التربية، والناس يطيبون خاطره قائلين: «زي ابنك برضه»، فيبصق في الهواء تجاههم ثم يستدير عائداً، ليفاجأ بأن أتباعي الأشقياء قد بعثروا له العدّة والكراكيب في الشارع، فيقف متوتراً يصيح بأقصى عزمه: «يا عبد الصمد... يا ابن ديك الكلب»، ثم يمسح عن وجهه شيئاً أظنه بعض دموع...

فلما فشل مشروع الحفاء تجددت في جلسة المساء فوق سطح دارنا فكرة تفصيل حذاء لدى الأسطى خليل، على أن تساهم أمي في تكاليفه بنتاج ثلاث دجاجات طوال المدة التي يستغرقها التفصيل، وتدفع مبروكة الشيالة بقية التكاليف. لكن مبروكة الشيالة اعترضت بأنها حين تستطيع أن تشتري لنفسها شبشباً جديداً فسوف تشتري لي هذا الحذاء أما أبي فقد كانت لديه ورقة اعتراض دامغة يجابهنا بها كلما ألمحنا له إلى الموضوع، تلك هو القرش الذي دفعناه هدراً، كان يردّد فيما يلف سيجارة ويشعلها، باسطاً كفيه: «إذا كانت الحكومة ما قدرتش تفصل لك جزمة أبقى أنا اللي حاقدر؟» ولكن الصندل الذي استخدمه أيام الدراسة فقط واحتفظ به في درج البورية طوال الإجازة الصيفية قد بدأ يتفكك رغم جهود عم محمود عيد المخلصة، نزع رقعة الأبزيم كلها واستبدلها بأخرى جديدة بأبزيم جديد ودهن القديم بلون الجديد حتى فرحني بحق، وضاقت منطقة الأصابع ففك جلدتها ووضع لها وصلة على شكل حلية، وذاب الكعب فاستبدله بقطعتين من الجلد السميك وتكرمش الحزام الذي يطوق أعلى الكعب وصار كالفتلة تحفر لنفسها مكاناً غائراً، فاستبدلها بغيرها جديدة، وفي كل مرة يربت على كتفي ويهز رأسه في ابتسامة «مبسوط يا سيدي؟ اوعى تزعل»، فأحس كأنه يبدي استعداده لأن يظل يعتذر لي إلى الأبد عن عدم تفصيله الحذاء كما وعد...





إلى أن جاء يوم ارتسم على وجه عم محمود عيد نفس الأسف والأسى، ولوى شفتيه كما فعل ازاء شبشب مبروكة الشيالة، ولوّح بيده علامة استحالة الاصلاح، فارتعد بداخلي عامود من الانفعال الفاجع شملني من قدمي إلى رأسي، وجاهدت لمنع نفسي من البكاء ولكن محمود عيد رأى الدمع في عيني، فمسح وجهه بكمّه ومسح أنفه ثم هزّ رأسه في تفكير وقال: «طيب أنا حاعمل على آخر صبري... أنا أصلي ما انهضش على زعلك انت بالذات»، ثم أمسك بالصندل الذي كان كالفرخة المذبوحة، وصار يضم إليه قطعاً قطعاً قطعاً حتى سلّمني في النهاية شيئاً ثقيلاً جداً ضائع الملامح لا هو بالصندل ولا بالحذاء، ولما اطمأن إلى إمكانية السير في سلام ربت على كتفي قائلاً: «خلّي مبروكة الشيالة تجيب لك واحد جديد بقى... قول لها كفاية كدة حتحوشيهم لأمتى؟»...

لكنني لم أقل هذا بالطبع لمبروكة الشيالة، إنما قلته لأمي وبقايا دمع متحجر يعوق انطلاق صوتي. ويومها نظفت أمي زجاجة المصباح جيداً كعادتها لدى قدوم كل مساء، لكنها بدلاً من أن تضعه على رفّه المعهود وضعته على الطبلية أمامي، واستكتبتني خطاباً إلى أمها ـ جدتي نفيسةَ في المدينة التي تعيش فيها طرف الحاج كامل الطنطاوي تاجر الأكلمة والبطاطين، بعد التحية والسلام والسؤال عن صحتكم الغالية أعرفك يا أمي العزيزة الغالية إنني بخير والحمد للّه على الصحة والستر لا ينقصنا إلا مشاهدة رؤياك الكريمة



وأوصيك يا أمي والنبي يوصيك يا ساكنة المدينة أن تحضري حذاء هدية لرمزي حيث أنه الآن في سنة ثالثة في مدرسة البلد اسم النبي حارسه وصاينه والمَثَل بيقول أعز الولد ولد الولد وأنت يا أمي تحبّين رمزي وتفرحين لدخوله المدرسة فلا بد من كل بدّ أن تحضري له حذاء جديداً من سوق المدينة يتباهى به على الأولاد ويقول ستي نفيسه أحضرته لي من المدينة وختاماً لك ألف ألف مليون سلام أنت والناس الذين تقيمين معهم خصوصاً الحاج كامل الطنطاوي والحاج عبد الفتاح الطنطاوي وعبد الخالق أفندي الطنطاوي وكل أولاد الطنطاوي كبيراً وصغيراً وكل مَن يسأل عنا نهديه ألف مليون سلام ومن عندنا يسلّم عليكم زوجي العزيز وكذا مبروكة الشيالة وأولادها فرداً فرداً والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته... ملحوظة: «لا بد يا أمي أن يكون مجيء الحذاء معك في أول زيارة فأنت لم تزورينا من مدة طويلة والسجين يرى في السجن أهله وأنا لا أراك والسلام ختام وسلام خصوصي من كاتب هذا الخطاب ابن بنتك رمزي ونوصيك بالرد العاجل والسلام...

لا ندري كم استغرق الخطاب من زمن في الوصول. لكني منذ أودعته صندوق البريد ولمدة شهور طويلة ظللت أقضي الظهيرة كلها أمام دار العمدة حيث يلتصق بجواره صندوق البريد الوحيد في البلدة، وحيث يجيء سيد أفندي الطواف بلباسه الذي يشبه لباس العسكري السواري والفرسان، بقبعة وحمار عفى يمتطيه وتحته خرج مليء بالخطابات، يفتح الصندوق ويستخرج ما بداخله ويختمه ويضعه في فوهة الخرج، ومن الفوهة الأخرى يخرج حزمة من الخطابات ويروح ينادي أسماء أصحابها في رهط من الواقفين في انتظاره والجار يتسلّم خطاب جاره أو قريبه وسيد أفندي الطواف يعرف أن هذا قريب ذاك معرفة جيدة في كل البلاد التي تقع في خط طوافه. وبين كل إسم وإسم كنت أبرز رأسي مجنحاً نحوه كأنني استدرّه خطاباً باسمي حتى بات الرجل يحفظني ويغمرني بابتسامة خاصة تشي بأنه أيضاً يتمنّى ورود خطاب بإسمي...

إلى أن صحوت من النوم ذات عصرية سعيدة على زئيط غير عادي في مندرتنا واسم آل طنطاوي يتردّد مصحوباً بصوت نسائي رقيق أكثر أنوثة من صوت أمي وإن كان نفس النبرات فعرفت أنها جدتي وقد عادت فقفزت من وضع الاسترخاء التام إلى وضع الوقوف في قفزة بهلوانية، ثم اندفعت أجري عابراً الدهليز حيث الفرن ومحل الراحة إلى المندرة حيث الكنب البلدي العريض غير المنجّد والمفروش بحصائر ملونة. كانت جدتي نفيسة متربّعة على الكنبة، ضئيلة الجسم لكنها مشعة بالأنوثة الشابة الطاغية حتى لقد تضاعف حجمها وبدت أكثر صباً من أمي التي تكوّرت بجوارها كقطعة بائسة تتلمّس الدفء لتسكن هكذا. كأنها وجدت أخيراً وبعد طول عذاب مَن سيحمل عنها همومها وما أكثرها. وكان أبي يجلس على الكنبة المواجهة وجواره رجل مهندم في ثياب بلدية ثمينة، أسمر الوجه مستطيله غليظ الشفتين بشارب كثيف، يتكلم بصوت عريض يعكس مع غلظ شفتيه احساساً عظيماً بالشبع. عرفت أنه الحاج عبد الفتاح الطنطاوي أوسط أخوال جدتي نفيسة جاء يوصلها وسوف يعود تنتظره في الخلاء عربة حنطور بالإيجار لتعود به إلى المحطة. كان في الأمر ثمة صياح العراك تتزعمه مبروكة الشيالة المتربعة وحدها فوق الكنبة الثالثة جوار الباب، ويشارك فيه أعمامي الذين جاءوا للسلام ولم يجرؤا على الجلوس في حضرة أبي ولو على سبيل الظهور المسرحي أمام الضيوف. ألقيت نفسي في حضن جدتي نفيسة التي تهيأت لاستقبالي باسمة بهجة مشرقة الوجه مرتفعة الحواجب الثقيلة كأنها عاشقة الأساطير تستقبل عشيقها الشاطر حسن. واستطاب رأسي ملامسة جسدها البض الصبي فسَرَت في عروقي مشاعر غزيرة لم أعهدها في حضن أمي. وكان صدرها الملموم والرائحة الذكية المتصاعدة من جوفها ويدها النظيفة اللامعة كل ذلك يجذبني نحوها وأكاد أغيب في داخلها. قلت لنفسي كيف لا يحدث هذا حين ألقي بنفسي في صدر أمي؟

ها هي ذي تسند رأسها فوق كتف أمها، ها هي ذي هي الأخرى تطلب ما لم أجده أنا في حضنها.

يقطع أبي حديث العراك الصاخب صائحاً فيها وحدها: «ما تقومي يا مرة. بسرعة حضّري العشا واعملي شاي الأول». تتململ أمي ويبدو عليها شعور بقهر دفين ويبدو عليها أيضاً أنها سوف تقوم بكل صدر رحب، بل هي تقوم فعلاً ويدبّ فيها نشاط يثير إشفاقي إذ أرى تناسق جسدها وقد تدهور وترهّل وآب إلى كتل لحمية تضيف إلى الإرهاق ثقلاً. كدت أستغرق في النوم كأنني لأول مرة ألتقي بأحضان أم بل كأنني أكتشف معنى الأم. وفيما بين النوم واليقظة كانت ضجة العراك تبلغني مسبّبة لي نكهة من السعادة وبلغني بكل

وضوح أن مبروكة الشيالة قد حسمت الأمر وكتب لها النصر المؤزر، فمَن ذا الذي يستطيع أن يبقى على موقفه أو على رأيه في مواجهة مبروكة الشيالة حتى ولو كان الحاج عبد الفتاح الطنطاوي نفسه؟. وبناء عليه تراجع ناس في حلفانهم وقرّر الطنطاوي أن يبقى مسافة تناول العشاء. ولأن مبروكة الشيالة تعوّدت على النصر التام ويلذّ لها أن تمعن فيه فإنها لم تكتف بتعطيل عودة القافلة لتناول العشاء بل شرعت تساوم على الاغراء بضرورة المبيت لولا أن نحنحات كثيرة ـ كأنها غير مقصودة ـ بلغتها من جهات متعددة فعالجت اندفاعها علاجاً غاية في اللطف قائلة في أسى كأنها قهرت على فعل شيء أسيف: «بقى ما كنتوش تباتوا الليلة؟». ثم أمسكت عن الحديث في هذا الأمر، وشرعت تستحث جدتي ـ من طرف خفي ـ على الكشف عن محتويات الزيارة التي كانت قد سربت إلى الداخل معبّأة في حقائب واخراج وقفف. على أن جدتي نفيسة وإن كانت لا تقوى على مبروكة الشيالة في صلابة الرأي والمثابرة على تنفيذه فإنها ـ جدتي نفيسة ـ أشد من مبروكة الشيالة دهاء ومكراً، وهي لن تكشف لها مطلقاً عن أي شيء جاءت به لابنتها، لكنها في نفس الوقت تريد أن تريح مبروكة الشيالة وتعزف لها على الأوتار التي تحبها أنغاماً تحبها هي، فربتت على رأسي في حنان قائلة: «قوم يا حبيبي قيس الجزمة بتاعتك كده» وكأن مساً كهربائياً أرعدني، إذ انتفضت قائماً أجري نحو الداخل في حجرة نوم أبي وأمي حيث ننام نحن مع مبروكة الشيالة...

وجدت أمي قد ذبحت أوزة وبطة صغيرة وأشعلت الكانون تحت حلة الماء استعداداً لتنظيفها، وريثما تغلي المياه لم تصبر أمي فتسللت وفتحت الخرج لتخرج منه عديداً من اللفائف بالجرائد والدوبارة، فتفكّ عنها اللفّة في لهفة ثم تصيح: حذاء لأبيك، ثم تفك الأخرى، حذاء لعمك لا بدّ، وهذا لعمك الآخر، وهذا وذاك وذلك... انشا اللّه ما أشتهيكي، وتفك لفة: وهذا لي... إنشا اللّه ما أشتهيكي... وهذا الشكر بين لمبروكة الشيالة... وأما هذا فحذاؤك يا رمزي، ولكنه يبدو كبيراً عليك، ثم بدا عليها غمّ لا يستطيع احتماله بشر، لكنها قلبته بيدها في قعر الخرج وبش وجهها قليلاً ثم خرجت يدها بلفة صغيرة انبسطت لها ملامح أمي قائلة: «لا بد أنه هذا، ثم فكته بسرعة وارتعاشة وصاحت: إنه هو ... قس»، وأمسكت قدمي بيد مرتعشة بالفرح ثم هيّأت لي كتفها لأستند عليه ففعلت، كان الحذاء عظيماً غاية العظمة حذاء بني لامع جداً وذو رقبة وأستك في جنبها الداخلي وساعدتني أمي «بفشخ» حنك الرقبة حتى سربت قدمي بداخلها ثم شدّت أعلى الرقبة فاستقرّت قدمي في الحذاء على أرض ناعمة مريحة دافئة، ثم استقرت الأخرى ومضيت خطوتين رائحاً غادياً يكاد الكعب الجلدي يرفعني عن الأرض ويهدهدني. وخيّل إليّ أنني قد تغيّرت تماماً وصرت شخصاً آخر يريد أن يخطو في احترام ورزانة وعياقة وازددت إحساساً بنفس وبسحر العياقة حين مزكت الجزمة تحت قدمي بذلك الصوت الموسيقي الذي كان يتباهى به أرباب الأحذية إذ يقول واحدهم في تفاخر أن في حذائه مزيكة، ويوصون الحذاء بوضعها في كعب الحذاء ليئز كلما داست الكعب فوقه. رغم الانتشاء العظيم الذي كنت فيه انشغلت بأمر الحذاء الآخر الكبير، فاستدرت أفحصه لأرى إن كان يصلح لي بعد عام أو عامين، لكن أمي انتزعته مني في رفق وتعنيف معاً فيما تصيح وقد تذكرت: «لا دا بتاع أخوك وجاي على اسمه ما تبقاش طماع»، فسلمت بذلك على الفور وداخلني شعور بالسعادة. ثم إنني خرجت إلى المندرة تسبقني موسيقى الحذاء الذي كنت أقشعر كلما تذكرت خطر الأرض الناتئة عليه وعلى كعبه فترتبك خطوتي وتتعثر. جلست إلى جوار جدتي على الكنبة مدلدلاً قدمي والحذاء ساطع فيها يكاد يكون أقيم شيء في، وأكثر لفتاً للأنظار، والجميع ينظرون لي بإعجاب باسم، ومبروكة الشيالة تمصمص بصوت مرح يعكس شعوراً بالحسد: «ابسط يا عم... مبروك ع الأرض»، وإذا بأمي تخرج بعد برهة تحتضن كومة اللفائف المتعرية تسندها بذقنها والفرح يكاد يوقعها، حتى إذا ما وصلت إلى كنبة مبروكة الشيالة وضعت كومة الأحذية ورفعت أول ما رفعت المركوب الأسود المستطيل ذي البوز الرفيع، وأقبلت به نحو مبروكة الشيالة: «دا عشانك يا أمه»، ثم وضعته في حجرها. انهدت أسوار الكبرياء على وجه مبروكة الشيالة دفعة واحدة فساحت مشاعر الطفولة على مشاعر الحيزبون وصارت وهي الشمطاء العملاقة مثل عابر سبيل تلقّى هبة من يد محسن كريم، تناولت المركوب مردّدة من فم أهتم تعوّد على خشونة الألفاظ واللعن بأقذع السباب: «ده عشاني أنا؟ ياختي انشا اللّه ما أشتهيكي... طب وتاعبة نفسك كده ليه يا حبة عين أمك ياختي؟ والنبي طول عمرك حنينة وكريمة»، وجدتي نفيسة تهزّ رأسها الرقيق في خجل بعد أن صارت تتلقى سيل الشكر من كل ناحية...

سافرت جدتي نفيسة بعد أيام قضتها في دارها الخاصة الكائنة خلف دارنا حيث أبيت



معها، واستمعت وأنا ملق برأسي فوق صدرها إلى حديثها عن الحياة في المدينة وسهولتها وحلاوتها ونظافتها حتى قرّ في صدري أن أذهب إلى هذه المدينة لا بد. وكنا في الإجازة الصيفية فصرت أستعجل قدوم العام الدراسي وأتوق شوقاً للبس الحذاء. وكان الشوق يستبد بي فأرتديه وأخطر به شوارع البلدة فلا أرى مجلساً إلا جلست فيه واضعاً ساقاً على ساق في عياقة ورجولة مبكرة. وما جلست مرة إلا وسألني ألف سائل في دهشة شديدة عن الحذاء... ومبروك ع الأرض... يا سلام على حلاوته... ومنين... وبكام. ومفيش منه... و... و... حتى أعود إلى دارنا أكاد أحمله فوق رأسي من فرط التبجيل والفرح. وكنت أتعمد إبرازه للأسطى خليل فيشمأنط، ولعم محمود عيد فيملس عليه قائلاً في إعجاب: «مفيش أحلى من كده». وقد لفّ صيته البلدة كلها فصار الزملاء أبناء الأعيان يزورونني في الدار ويطلبون الفرجة على حذائي ذي الرقبة والأستك، فألمّعه بكمّي قبل أن أعرضه عليهم ليتناقلوه واحداً وراء الآخر مقلباً فيه ظهراً لبطن في إعجاب. لقد كان حذاء تاريخياً في حياتي، إذ بفضله صرت رجلاً في مشيتي وتلميذاً أنيقاً يحسب له ألف حساب، بفضله صرت في زمرة أبناء الأعيان لسنوات ضمنت خلالها ألا يشتمني أحدهم قائلاً: «يا حافي». غير أن حلم السفر إلى المدينة حيث تسكن جدتي نفيسة كان قد بدا يستحوذ عليّ ويضع فرحة الحذاء في المرتبة الثانية.

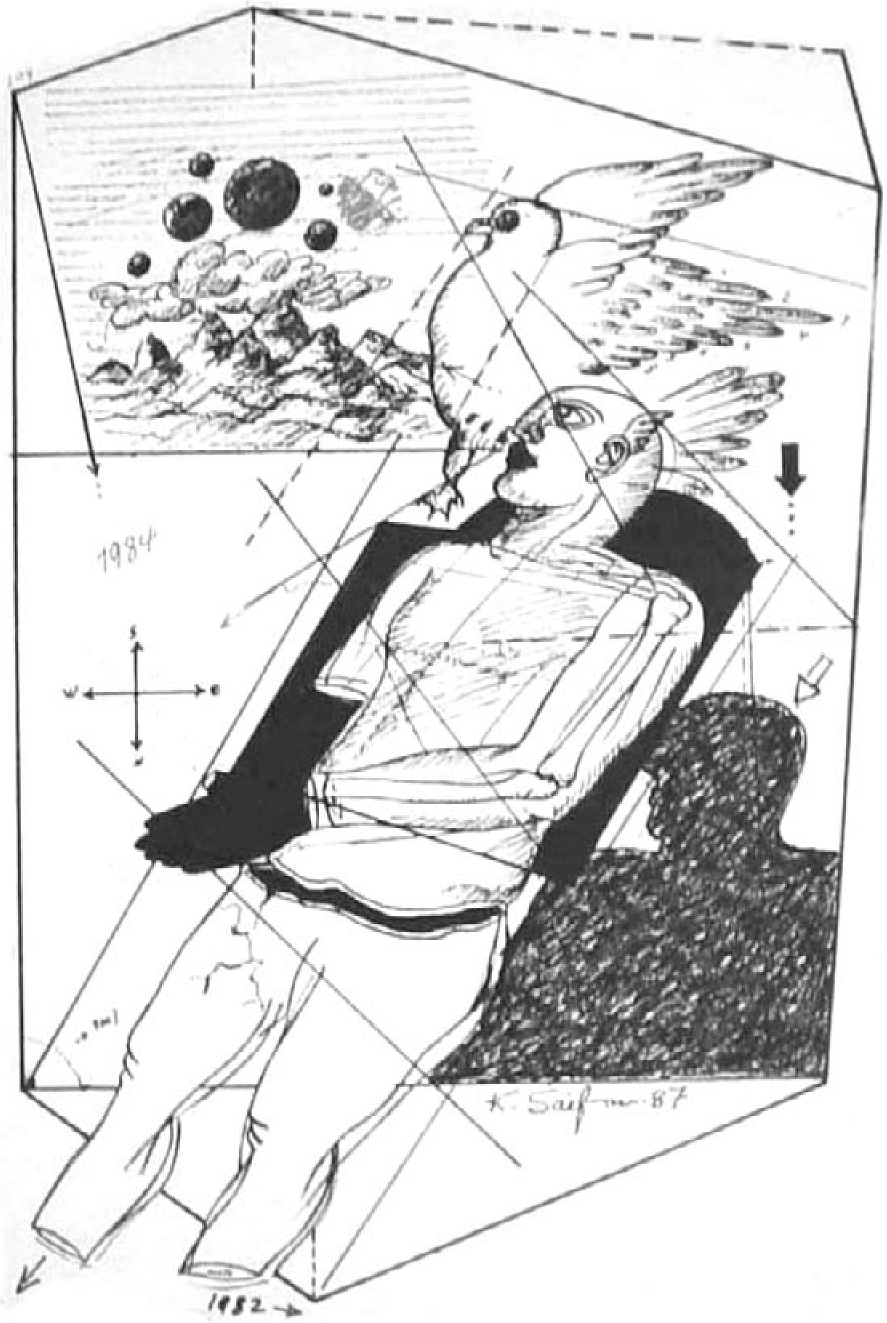


أيام الخزنة

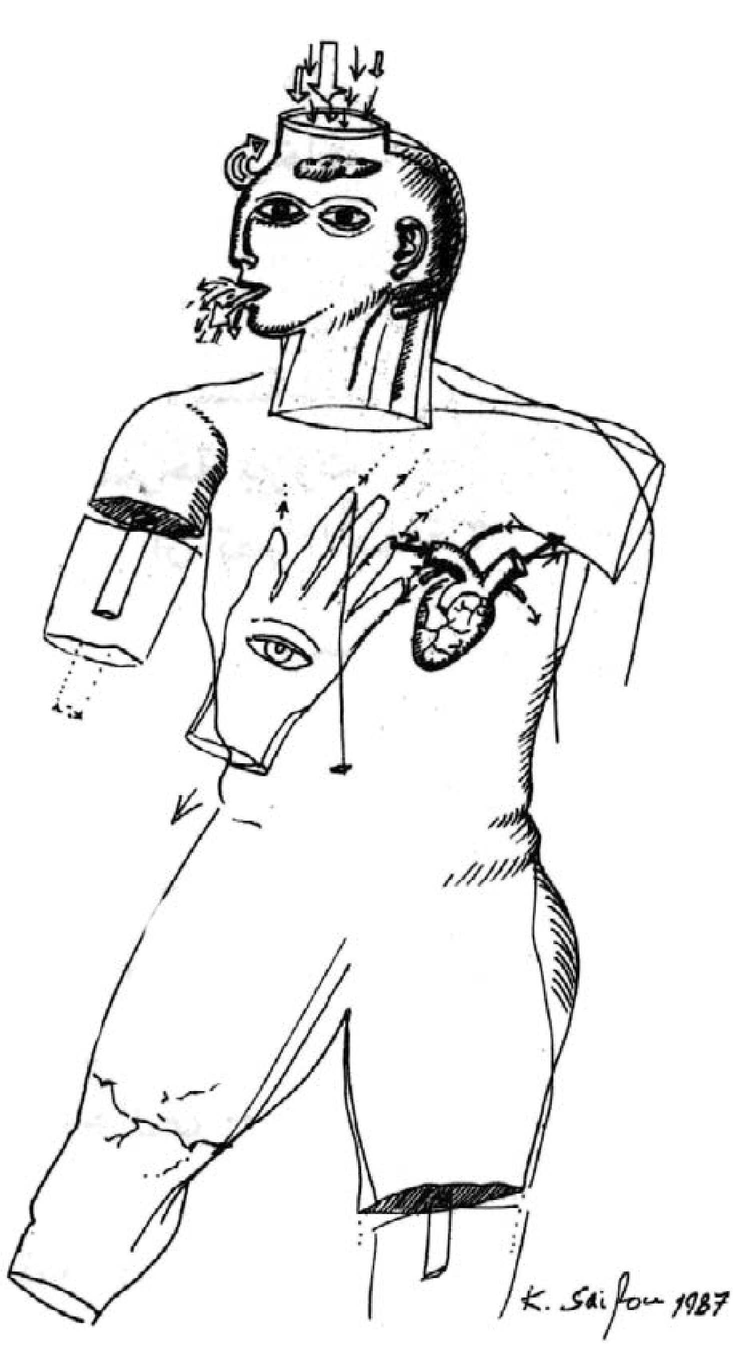
كل ما أذكره من طفولتي مشهد النوم، حيث كنا ـ أبي وأمي وأختي بدرية وأخي بدر، وأختي حسنية وأخي حسن، وأختي فلّه وأخي فلّ، وأخي جعفر وأنا ـ ننام في الخزنة. وهي حجرة أشبه بالقبو أو الزنزانة، قابعة في ركن قصيّ من أعماق دارنا الواسعة بشكل يوحي بالهبل أكثر مما يوحي بالرحابة. كانت في الأصل مخزناً ملحقاً بدكان بقالة، قيل أن جدي ـ الذي كان ملحقاً بوظيفة كبيرة مجهولة لنا في السراي الخديوي ـ كان يموّنه بالبضائع وبراميل الزيت، وكان أبي يقف فيه ليديره بعد أن أُحيل إلى المعاش من وظيفته الحكومية التي كان يفخر دائماً بأنها حكومية. ولكن الدكان راح يهزل ويهزل، وشهدت رفوفه وهي تفرغ من كافة البضائع وتمتلئ بصناديق فارغة تستر عرى الرفوف فحسب، ثم ما لبث الدكان أن تحوّل إلى مندرة يستقبل أبي صحابه فيها ليشربوا الشاي ويتحدثوا بمرارة عن إسلام الحاج محمد هتلر الذي اختفى من الوجود فجأة وتركهم جميعاً غارقين في الوحل.

الخزنة كانت هي المكان الوحيد في دارنا الذي يصلح لإيوائنا في مواسم الصقيع القارص، أما الصيف فحصيرته واسعة يمكن افتراشها على السطح ولهذا فإنني لا أتذكر سوى الأعماق في الخزنة وكل ما عداها تبدّد في الهواء الطلق. طولها متران وعرضها متر ونصف، مبنيّة بالطوب النيء، مليسة بالطين المخلوط بالتبن، جدرانها سوداء بفعل الهباب والأنفاس والليل الدائم، لها باب طويل أسود من الخشب الأصيل المشغول، بدرفتين، يفتح على المندرة، وفي الحائط المجاور له باب آخر صغير جداً، بدرفة واحدة يفتح على السلم مباشرة، خمّنت أن يكون غرضه إدخال البضائع إلى الخزنة من باب الدار الخلفي تفادياً لمدخل الدكان النظيف وكنت دائماً أقشعر من هذا الباب المغلق ربما من قبل مولدي، ليس لأن الظلام يتربّع كالوحش على عارضته السفلية ليل نهار وإنما لأني صحوت ذات ليلة على هياج فظيع وصريخ مسرسع ملتاع يقشعرّ منه البدن، فلما فتحت عيني رأيت جمعاً هائلاً تبيّنت فيهم بعض أصدقاء أبي وجيراننا وبعض أخوتي وأمي وأبي يتصايحون في عنف وعصبية، ويدلقون الماء في خصاص الباب، وثمة من يضرب في خصاص الباب بقضيب من حديد، صرت أصرخ في رعب، لولا أن أختي بدرية أخذتني في حضنها وأفهمتني أنهم كانوا يطاردون العرسة حتى تمكنوا من زنقها هكذا بين فكي الباب... فظللت مدى الحياة أقشعر من هذا الباب.

ثمة رفّ خشبي صغير محندق ينبت على حائط الباب الصغير، تتسلطن عليه لمبة الغاز نمرة خمسة، تبعث ضوءاً عليلاً يصنع الأشباح التي باتت تؤنسنا وتعاشرنا خلف المصباح يمتد شريط طويل كثيف من الهباب القاتم السواد. في الحائط المواجه لهذا الحائط دولاب غائص في الحائط، له باب خشبي بحاشية لا بد أنها كانت جميلة ذات يوم بعيد جداً... كانت أمنيتي أن تطوله قامتي لأعبث بمحتوياته التي لا يني أبي يضعها فيه: كتب صفراء وروايات وسيرة أبي زيد وعنترة وألف ليلة وكتاب شمس المعارف الكبرى الذي كان يحلو لأبي أن يجرب ما فيه من مسائل السحر والأعمال السحرية، وعقود ومواثيق وقسائم وأوراق غامضة، حتى محفظة نقوده الخاوية وساعته العتيقة يخلعهما من الصديري قبل النوم ويضعهما في الرف العلوي... فلما طالت قامتي فتحة الدولاب صرت أقشعر من جوفه الذي يفح ظلاماً ورائحة عفونة ورطوبة تختلط برائحة الورق ورائحة العثة، وكنت ما أن أفتح درفته التي تزيق وتتلكأ حتى أسمع صوت مباراة في الجري والتقافز صادرة عن جوف الدولاب أعرف أنها لفرَق من الفئران تسكن في جوف الحائط حيث يوجد سرداب سحري طويل ممتد في الحائط قيل أن جدي أعدّه لتخزين البندقية غير المرخّصة.



تحت الدولاب مصطبة رفيعة جداً بعرض الجدار، عرضها لا يزيد عن نصف متر، أعدت في الأصل لتوضع فوقها براميل الزيت ذات الصنابير لكن يتسنّى للمرء أن يتقرفص بالإناء ويفتح الصنبور على راحته. لكن حينما جف الزيت تماماً بيعت البراميل كما بيعت الرفوف والبنوك والصنج والموازين، اشتراها بائع سريح كان يسهر مع أبي كل ليلة يبحثان في الكتب الصفراء عن حجر الفلاسفة الذي يُقال أنه يحوّل المعادن الرخيصة كلها إلى ذهب، إلى معدن ثمين. لا أذكر متى تمّ هذا، كذلك لا أذكر متى بدأنا نبيت في هذه الخزنة، لكنني أذكر أن أبي كان ينام فوق هذه المصطبة. وكانت لدينا سجادة قديمة جداً هي كل ما تبقّى من آثار العزّ الغابر، متآكلة الأطراف مليئة بالخروق، تقيحت ألوانها، مع ذلك ظلّت تحتفظ باحترام نسبها إلى السراي الخديوي، وإن بدت لكل من زارنا ورآها، مثلنا عزيز قوم ذل. يطويها أبي بالطول أربع طيّات ثم يمدّدها فوق المصطبة، فوقها وسادة حائلة اللون غارقة في الزيت والعرق صلبة كأنها محشوة بالحجر، يضع فوقها منديلاً محلاوياً ينافسها في الهوان والقِدَم، ينقل المصباح من رفّه إلى مسمار دق أسفل الدولاب الحائطي، يظل يقرأ لاصقاً عينيه بالصفحات لساعات طويلة، ثم ينقل المصباح إلى رفّه، ونشعر بمروره ونحن نيام على الأرض أمام المصطبة متراصين فتقشعر أبداننا الغائبة عن الوعي خوفاً من أن يتعثّر في جثثنا فيقع بالمصباح فوقنا فتكون الكارثة، لكنه في العادة لا يتعثّر إلا وهو عائد بعد أن يبرم ترس الشريط فيغلق الضوء العليل أجفانه. تحت الرفّ مباشرة على الأرض طاجن فخاري كبير تتصاعد منه رائحة الصنان الحادة، حيث كان معداً لبولنا، وكنا نحفظ مكانه جيداً، ويقوم الواحد منا من النوم مغلق الجفنين، فيخطو خطوتين اثنتين، ثم يطلق العنان لبولته التي تخر وتبقلل بصوت عال، في الصباح تقوم أختي بدرية برفع هذا الطاجن ودلقه في الشارع، لتكون أمي قد نصبت مكانه الكانون، الذي هو عبارة عن بضع قوالب من الطوب الأحمر



ترصّهما في صفّين متقابلين تسند الحلّة فوقهما وتدسّ حطب النار بينهما لتسخن المياه لكي يستحم أبي، حيث نكون قد هاجرنا من الخزنة إلى المندرة ليتمكّن أبي من وضع الطشت إذ يقف وسطه ويرشّ جسده بالماء ثم تقوم أمي بدلق الماء المتخلّف من حمومه في حلّة كبيرة وتدلقها في الشارع. غير أن أبي بات متنازلاً عن هذا الحق ضمن الحقوق الكثيرة جداً التي كان يضطر إلى التنازل عنها يوماً بعد يوم، فأصبح يرتدي الجلباب على اللحم ويطرقع بقبقابه حتى الجامع المتاخم لحارتنا حيث يستحم في ميضأته، وهو مشهد مألوف جداً في كل مساجد قريتنا. حين يعود من المسجد يكون كل أخوتي فيما عداي أنا وجعفر قد لحقوا بملم الأنفار حيث يشتغلون أنفاراً موسميين في شغل الوسية التي قيل أنها كانت ذات يوم من بين المهام التي يشرف عليها جدي... وتكون أمي قد جهزت له الفطور، الذي يتكوّن عادة من رغيف من دقيق الذرة المخلوط بالسن، وقطعة جبن قريش، وطبقاً من اللّفت، يأكلها أبي في شهية هتماء تستغرق وقتاً طويلاً، والوابور المشتعل بجواره يئن أنيناً عذبا، يمتزج برائحة الشاي النفاذة وهو يغلي في «البكرج» ذي اليد السلكية. تنتهز أمي لحظة إزاحته الطبق من أمامه لتصبّ الشاي في كوب من الزنك صغير، تتصاعد من رغوته فقاقيع نرى فيها خيال الشمس المتسربة من بين حديد الشباك وخيال الصور الملونة المعلقة على حوائط المندرة، بلذة فائقة يشفط أبي كل هذا في شفطتين ليفرغ إلى الجوزة يشرب كرسي الدخان المعسّل ريثما تنتهي أمي من تجهيز شاي الدور الثاني، حيث يغلي نفس التفل مرة أخرى ويحلّي بقدر أكبر من السكّر.

أتأمل أمي وهي تتنهد إلى الداخل كاتمة في صدرها شيئاً تود قوله، إنها تتحين انفراجة الأسارير على وجه أبي لكي تبلغه أن موعد الطحين قد حان، وأن الرغيف الذي أكله اليوم في فطوره انتزع من كومة لقيمات جافة في قلب «الصحارة» هي كل ما تبقى من الطحين السابق. أبي هو الآخر يعرف أنها تريد أن تبلغه هذا، لكنه يتجاهل، وكلما خيل إليه أن أساريره انفرجت قليلاً عاد فكشّرها وعقد على صفحة وجهة عشرات العقد والكلاكيع كأنه يقيم سدوداً يمنعها بها من فتح هذا الموضوع أو أي مواضيع أخرى. مسكينة هي، ماذا ستفعل حين أصرخ فيها بعد ساعات طالباً الغذاء وهي تسوف وتماطل، إن الدقيق مطلوب الآن وفوراً، ولحظة التأجيل تمتد عادة إلى مثل هذا الحد، فإلى أن نشتري كيلة الذرة وكيلة الشعير ونطحنهما في الماكينة نقضي بضعة أيام نأكل خلالها الأرز الذي تشتريه أمي كوبة وراء أخرى كل يوم، ملء كوب الماء أرزاً بقرش وثلاث بيضات تحوشها أمي من الدجاج الذي تربّيه وتسكنه معنا في الخزنة في قفص تغطّيه بثوب وتضعه على عارضة باب الخزنة الصغير المطل على السلّم. ومسكين هو، ماذا سيفعل وكيلة الذرة بثلاثين قرشاً وكيلة الشعير بعشرين، ونحتاج لأربع من الذرة وثلاث من الشعير، أي ما يقرب من جنيهين في حين أن أجرة أخوتي في الوسية جميعهم ثلاثين قرشاً في اليوم، وقد قبضنا أجرتهم عن أيام طويلة قادمة منذ أيام طويلة ماضية، ولا يزال أمامنا خمسة عشر يوماً حتى يصير من حقنا طلب مقدّم آخر من المقاول علي منصور الذي يورد الأنفار للوسية، ولو لم يكن يقيم احتراماً لجدّنا الذي كان صديقه لما أعطانا مقدّماً من الأساس. تظل المحاورة الصامتة تحتدم تحت الجلد بين وجهي أمي وأبي لبضعة أيام، وإخوتي يسرحون إلى حقول الوسية ببقايا أرغفة مكسّرة يصرّونها في المنديل المحلاوي ليقرشوها عند الغذاء مع خيارة محدقة، ولا أحد منهم ينبس بحرف لوقوفه على جلية الخبر...

لست أذكر متى بدأت أيام الضنك ولكنني أذكر أنها لا تزال قائمة ولا أزال أنام في الخزنة محشورة جثتي بين جثث أخوتي. أتقلب على الأرض الصلبة بصعوبة، لأجد أن الحصيرة قد انطبعت خطوطها الغائرة على ضلوعي، لتضربني أختي حسنية في فكي صائحة أنني كتمت نفسها، وأجدني أرتعد من البرد رغم كثافة الأنفاس، أبحث عن البطانية المرقعة المزودة بملاحق من الخيش، أجدها شبحاً متموجاً بين الأقدام كبركة من القطران، لكي أستعيدها عليّ أن أشدّها من بين الأجساد الثقيلة، ولا بد أن يصحوا الجميع، وهي لحظة أخشاها ويرتعد قلبي كلما تخيّلت مجرد حدوثها مرة أخرى... إذ حدث أن أخذت أسحب البطانية المزعومة وأشدّها من أطرافها بكل قوّتي حتى تقلب الجميع وتصايحوا في الظلام وبرطموا وظلّت ضوضاؤهم تنقّ لفترة طويلة وأنا أحاول شرح موقفي بلجاجة، فما أدري إلا وكف الشيطان تهبط على وجهي كسقف الحجرة كالقدر، فأنتفض صارخاً من قلب يتمزقه الفزع، والكفّ الشيطانية الخشنة بأصابع من لهب تقبض على كتفي بعنف تلصقني فأصطك بدماغ أختي حسنية فتندفع هي الأخرى صارخة جاعرة والكف تنهال على صدغي ورأسي والظلام مطبق وصوت خيّل إليّ أنه صوت أبي يزأر فيّ بحقد دفين مجنون هادراً بألفاظ يخيّل إليّ أنها: نام بقى نامت عليك حيطة، وأنا أحاول كتمان أنفاسي ولكنها تتجمّع لتندلق مرة واحدة من حين إلى حين كصيحات محبوسة كصوت ريح قوية تعوي ألماً وهي تدخل من خصاص الباب، أختي بدرية تزحف عبر الأجساد من آخر الخزنة لتلحق بي، تزيح جسد أختي فلّة فتحدث حركة تزحزح تشمل الصف كله، لتستقر هي إلى جواري آخذة رأسي في حضنها وتربت على ظهري وأنا أنتفض، وحركة انسلات من فوق المصطبة تحدث، وقدم تتعثر فينا، نعرف من لمسها أنها قدم أمي، حيث تصل إلى الرفّ وتشعل المصباح، فنزيح الغطاء عن عيوننا خلسة، كلنا دفعة واحدة، لنتمعّن في شكلها تحت الضوء، فنراها منفوشة غير محكمة كأنها لمّت جسدها على عجل وتركت بعض أجزائه حيث كانت تنام ـ ويا للعجب ـ بجوار أبي على المصطبة التي لا تكاد تتسع لجسد واحد...



بعد برهة يخبو الضوء من جديد وتختنق الأشباح على الحائط المواجه لعيني وقد جفّت فوقهما الدموع وكوّنت طبقة صلبة. أنظر في المصباح فأرى شريطة جمرة حمراء وسط ذبالة شاحبة كالمصاب برمد صديدي، فأعرف أن زيت المصباح قد نفد من الأمس وأن كلاهما - أبي وأمي - قد رحّب بتركه دون زيت وتجاهل الأمر في مثل هذه الليلة بالذات ضماناً لأن لا يقوم أحدنا في الليل ويجده مطفأ فيشعله وكنت أعرف أن ثمة ليالي يستحبّ فيها الظلام ولكنها مثل كل الظواهر والبواطن غامضة، ثم أنني لم أكن قد تعلّمت كلمة لماذا وقد بات من الواضح أنني وكل أخوتي وأبناء جلدتي لم نتعلمها بعد...

تلفظ الذبالة آخر أنفاسها وأمي متربعة عند قدم أحد أخوتي من أول الصف، يداها ممسكة بذيل ثوبه، يمناها تسرح بين ضلوعه وفي ثنيات ثيابه الداخلية، خارجة بالقمل من جسده، لتضع القملة في فمها وتضغط عليها بأسنانها فتطرقع. وكنا نعجب كيف أن الواحد منا حين يتوجع من قرص القمل والبراغيث فيصحو لهرش في كل جسده ويحاول اصطياد قملة أو برغوث فلا يفلح، في حين أن أمي تمد يدها فقط تحت الثوب لتعود في الحال بقملة أو برغوث وكنا نعجب أكثر من قدرتها على طحن الحشرة تحت سنها ونفخ بقاياها، وكنا نسألها كيف تفعل ذلك؟ فترد في بساطة: إنها دماؤكم التي نشقى في تكوينها داخل عروقكم فهل أتركها لهذه الحشرة تنعم بها؟ وما دمت لم أفلح في مقاومة هذه الحشرة فلن أتركها تمصّ دم أولادي وسوف أنتزعه منها حشرة حشرة. وكان ذلك يزعجني في أول الأمر ولكنني مع ذلك كنت كلما صحوت وسمعت طقطقة الحشرات تحت سنتها تسري أسراب النمل داخل عروقي وأظل أستشعر الدفء والراحة في انتظار وصولها إليّ عبر الأجساد، حيث أستكين لكفّها وهي تسرح بين ضلوعي تخلّصها من فرَق القمل والبراغيث التي ترتع جيوشها في ضلوعي.

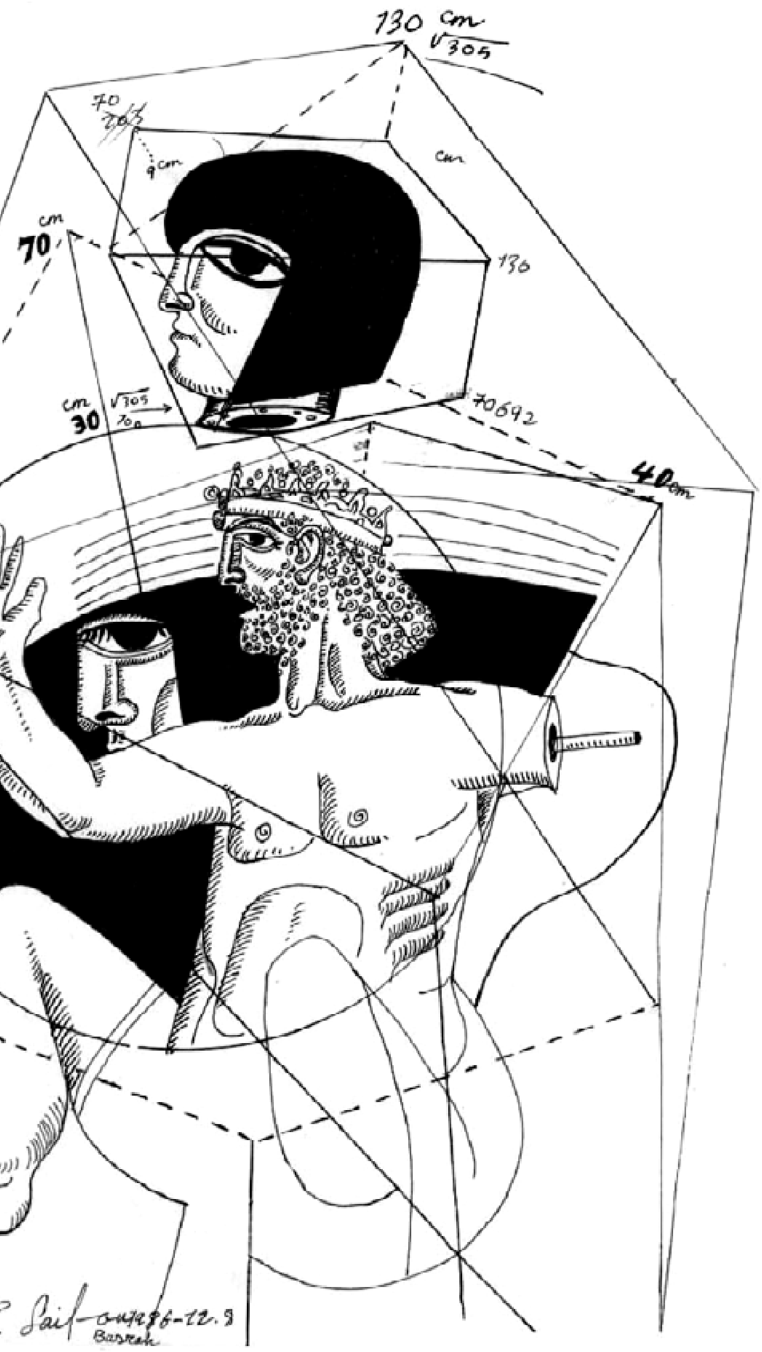
في تلك الليلة الليلاء، وعلى ضوء تلك الذبالة المرمدة سقطت عيني على الحائط فوجدت بين الأشباح الشاحبة الساجية أول تغير انتهيت إليه في حياتي وبدأت ألاحظه بشغل كبير، ذلك أنني قبل هذه اللحظة كانت عيني بعد أن تستعرض الأشباح وتتيقن أن صوت الهدير والرعد والأنين المتماوج في أنحاء الخزنة قادم في الأصل من ركن على المصطبة لا من هذه الأشباح، تستقر عيني على صورة منزوعة من مجلة وملصقة على الحائط منقسمة إلى بروازين كبيرين في كل منهما صورة لرجل طيب الوجه ذي شارب يرتدي البذلة والطربوش ووشاحاً عليه بعض النجوم والدبابير الذهبية، وكنت قد علمت قبلاً أن هذه التي على اليمين هي لرجل يدعى سعد باشا زغلول الذي قال: مفيش فايده، والأخرى لرجل يدعى النحاس باشا الذي ألغى المعاهدة، وكنت أعرف أن أبي يضعهما هكذا في مواجهته لتقع عينه عليهما وهو يضطجع على الوسادة الجافة قبل أن يغلق جفنيه على النوم، أما التغيير الذي حدث فهو وجود صورة ثالثة لرجل يقف رافع الرأس والصدر في شموخ، يمسك بيده الكاب العسكري، وفي شاربه وملامح وجهه قوة وتصميم وعناد ونبل ورهبة، وبسمة حنون إن بددت رهبته لا تقوى على خدش مهابته. ظللت أتأمله طويلاً فبدا لجدة الورقة بالقياس إلى الصورة المجاورة القديمة الحائلة كأنّه مربع انفتح في الحائط وسمح بتسريب ضوء تمثّل في هذه الصورة لحظتها رفعت حاجبي، وخرج صوتي من قرار مكين مرتعش الأوصال: «أمه... أمه... هو مين اللي متعلق على الحيطة»، يبدو أن صوتي كان محملاً بالرهبة حتى أن أمي التي كانت منهمكة في سحق الحشرات واستعادة دماء أبنائها منها استدارت خلفها مذعورة وهي تقول بخوف: «مين يا وله؟»، فرفعت أصبعي الصغير نحو الصورة، فشوحت ثم لكزتني في جنبي قائلة: «أنا عرفة؟». فانكسر جفني فوق ذبالة الضوء المرمد، وشردت في بحر الظلام منتظراً يدها التي حتماً سأحس بها سارحة بين ضلوعي. عرفت فيما بعد أن هذ الصورة الجديدة هي لرجل يدعى جمال عبد الناصر الذي طرد الملك والانجليز وأمّم القنال وقال أنا المصري العربي المحمدي ويلكم يا أعداء العرب. وكنت أعجب لماذا يعلّقه أبي على جدار الخزنة بالذات رغم اتساع جدران المندرة، لكني سمعته مرة يقول في جمع من صحابه شاربي الشاي الأسود أنه واثق من أن عبد الناصر سوف يرى هذه الخزنة ويفهم كنه ما يدور فيها من حياة، فيقول أصحابه ضاحكين: «حتى ولو كان مجرد صورة يا قاسم أفندي؟» فيشفط الشاي صائحاً: «حتى ولو كان صورة في مجلة»، فيقول أحدهم متوغوشاً: «إزاي يا أخي» فيقول أبي في ثقة عجيبة: «أنا عارف... عينه في الصورة بتقول كده... بتقول إنه ممكن يشوف الخزنة». لست موقناً مما إذا كان عبد الناصر قد رأى الخزنة أم شغلته أحداث الحياة عنها، ولكن أبي ظل سنوات طويلة يؤكد أنه يراها ولكن المشوار بينه وبينها طويل وشاق فمعذرة إن كان قد تأخر في الطريق لسبب من الأسباب. وقد مات عبد الناصر قبل أن يشرّفنا بالحضور لرؤية الخزنة، وعلقت بجوار صورته صورة لرجل يدعى أنور السادات بدا لنا أنه جزء لا يتجزأ من محتويات الخزنة، ولكن حينما سمعناه يشتمنا ويتوعدنا ويزأر فينا ويحرّض علينا الباعة وأصحاب المال انكسر خاطر أبي وكفّ عن النظر إلى حائط الصور بقية عمره، على أنه ظل موقناً أن عبد الناصر سوف يحضر إلى الخزنة ذات يوم ولكن بجلباب وطاقية مثلنا...

لم أعد متأكداً مما إذا كنت لم أبرح الخزنة من يوم ولدت حتى اليوم أم أنها هي التي لم ولن تبرحني وتظل تتنقل معي في كل مكان وزمان. إنما الذي أتأكد منه حقاً هو أنني لا زلت فيها وأن الزمن لا يزال هو الزمن وأن ذبالة الضوء العليل المرمد لا تزال تخبو كلما خلدنا إلى النعاس. كل ما مررت به في حياتي. إن كنت قد مررت حقاً بشيء - يقبع في هذه الخزنة. أتذكر أنني كنت أخرج إلى المندرة فأصطدم بظلام مماثل يمتد هذه المرة من الشارع، حيث يجثم السحاب الكثيف على السماء، وأرى المطر يرخّ بشدة والسماء ترعد بعنف فأدرك ألا سبيل

لرؤية الخلاء، ذلك أن الشارع بحر من الطين السائل يرتفع إلى ما فوق العتبات ويدخل علينا المندرة فنمنعه بالأواني والألواح الخشبية، ويتعطل أبي عن السعي في أبواب الله التي هي بلا نهاية. أمي رغم كل شيء تحب أبي، في غيبته تظل نهارها قلقة عليه، آه لو أمطرت السماء قبل أن يعود إلى الدار، تظل تضرب صدرها في ولولة، تذهب إلى أقاربنا المجاورين تدعو لهم بالستر والصحة أن يلحقوا بالرجل قبل أن يغرقه المطر، يتحجّج أقاربنا بأن الحمارة في الحقل من صبيحة ربنا، تظل هي واقفة في الخلاء مغروزة في الطين تولول في هلع وقلة حيلة، نتبعها أنا وأخي جعفر في الولولة وننجمج في البكاء بحرقة نضحك لها فيما بعد ونتندّر، وأمي ذاهلة عنا تذهب إلى آخر الحارة وتتزحلق وتتساند على الحيطان. في العادة نراه في النهاية مقبلاً كشبح هائل الحجم محني القامة يحبو على ثلاث، تمتد عصاه العوجاية لتستقر في البقعة الصلبة ليخطو إليها، يبدو وسط سيل المطر المنهمر وفي قلب الطين المتراكم كأنه كتلة من السحاب أسقطها الرعد في المطر. تسرع أمي إليه وتهمّ بتطويقه وحمله على صدرها، لكنه يعاجلها برفع العصا في وجهها منذراً إياها بألا تفعل، فترتدّ عنه لأن عادتها الصدع حين يأمر حتى ولو تدحدرت به الحال. تحضر له الطشت والابريق فيغتسل، ثم يقفل راجعاً إلى الخزنة حيث نتواتر في أثره داخلين. تحتفل أمي بعودته سالماً فتكشف عن مفاجأة تدخرها، إذ تبدأ باشعال الكانون فجأة، فتشرئب الفرحة بأعماقنا ويشملنا فرح بهيج يتوتر خوفاً من أن يتمخض الأمر عن تسخين مياه لقدمي أبي، هي تعرف أننا نتوجس من هذا، فتضللنا، وتجيء بالحلة الكبيرة بقدر من الماء وتضعها على الكانون لوقت طويل، حينئذ لا يجرؤ واحد منا حتى أبي على سؤالها ماذا تفعل، ليس خوفاً منها بل خوفاً من الصدمة حين تبدد الأمل بقولها: «حاسخن مياه». نخدع أنفسنا طويلاً بمحاولة نسيان الأمر من أساسه، في نوم أو لعب، لنفاجأ بالطبلية وقد نصبت، وسبت العيش وقد استقر جوارها، وجو الخزنة يعبق برائحة العدس العظيم كل العظمة، والأطباق تتوالى وأمي بجوار الكانون تراقبنا وتنظر في قعر الحلة بتوجس مرتهبة، فإن رأتنا لا نزال ننتظر املاء الطبق كشرت وزأرت ورمتنا بنظرة تأنيب قاسية منذرة إيانا بحق الغائبين الشقيانين في الحقل في بحر المطر فحينئذ يكتسي وجه أبي ببسمة تسليم ويبتعد عن الطبلية زاعماً أننا قد حشرناها ـ يقصد بطوننا ـ حتى لتوشك على الانفجار! يكذب أخي جعفر بشكل يغيظني حين يضرب بطنه بكفه صائحاً: «وأنا حشرتها» وأنا أعرف أنه يكذب، فأزغده قائلاً: «يا فشار يا مياس»... فيرفصني في جنبي قائلاً: «يا مفجوع» فأزغده في صدره قائلاً: «يا كذاب»، تضربني أمي فوق رأسي بالمغرفة، فأصرخ في عنف وأفشّ غلّي في البكاء، فتعاجل أخي جعفر بضربة مثلها، فأكفّ عن الصراخ، ويشرع هو، وتقول أمي مبررة فعلتها: «مولودين فوق روس بعض عشان كده نقرهم من نقر بعض»، وتعلو الضوضاء فينتفض أبي صائحاً من غيظ ومن كمد: «إلاهي ربنا ياخدكم كلكم، أنا عارف هو بلاني بيكم ليه؟ أنا كنت عملت في دنيتي إيه بس، ده كفر والله يا مسلمين» ثم ينهض موسعاً المصطبة من أمامه ضارباً الهواء بقدمه... ويقيم الصلاة.

إذا أقام أبي الصلاة فعلى كل شيء في الكون أن يكفّ عن التنفس وإلا لخبط أبي في قراءة القرآن، هو الذي يعيد غسل اليد والقدم عشرات المرات لمجرد الوسوسة، ويعيد التعوذ مثنّى وثلاث ورباع ليتأكد أنه قد تعوّذ عن نية خالصة. نظل أنا وأخي جعفر نكتم بكاءنا، تتحول الدموع إلى برابير تنثال من أنفينا، نتبارى في الشن بصوت عال محاولين استرجاع الدموع المنسربة من خلال الأنف تشمل الخزنة رهبة يقشعر منها البدن، يرتفع صوت أبي بترتيل القرآن منغماً مجوداً، نروح نرقب أبي غير مصدقين أنه هو الذي يصدر هذه الأنغام الشديدة العذوبة، التي يقف لها شعر الرأس، وينعتق الخيال من أسر الخزنة إلى صور جميلة، فلو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي... الله أكبر... سمع الله لمن حمده... ربنا ولك الحمد... فتردد الخزنة أصداء التكبير والحمد ككورس يهزنا ويزلزلنا، نشرع في نسيان آلام ضربة المغرفة، نتذكر أننا كان يجب أن نكون سعداً الليلة فقد تعشينا عدساً نحاول تذكّر طعمه ولما يمض على مضغه دقائق، نتشكك في أننا بالفعل قد أكلنا حساء العدس أو قد أكلنا من الأساس...

لحظتئذ ننتبه إلى أمنا، لنجدها قد تكورت جوار الكانون معطية وجهها للحائط مسندة مرفقها على ركبتها، وخدّها مستقر على كفها، وبيدها تمسك عوداً صغيراً من القش تنكش به الأرض كأنها تستطلع الغيب الصلد، لكننا نحس أن ظهرها يرتعش في الشحوب، فنميل لرؤية وجهها، فيخيل إلينا أن دماغها يتصاعد ليخترق سقف الخزنة ويتصل بالسماء المرعدة الممطرة في الخارج، ومطر الدمع المتساقط على خدّيها وفود اتصالها بالسماء، تنفضها العبرات المكتومة فيهتز عقد الفل المشغول بالترتر في تربيعة رأسها، نشعر بخوف غامض رهيب، نستعد لاستئناف البكاء من جديد، غير أننا نتمهّل قليلاً ربما أعفانا الله منه بمعجزة، تتحول عبرات أمي إلى أهأهات متقطعة حادة نائحة مرعدة، تختلط بصوت أبي يقرأ التحيات، يستبدّ بنا الرعب، يحلو لأخي جعفر أن يبادر باعلان مشاركته لأمه في البكاء والمؤازرة الباكية طمعاً في شيء تعطيه له خلسة، خشيت أن يسبقني بالحظوة لدى أمي فابتدرته بالبكاء، وكان هو حرّيفاً في البكاء، لأنه كان أكثرنا جميعاً تعرّضاً له، إذ هو قد ولد في عزّ انشغال أمي حتى عن نفسها، حيث لا يوجد من يستقبله بأدنى قدر من الاهتمام، فكان يترك في العراء أو حتى في جهنم حتى ينفلق من البكاء فينهدّ نائماً ويحسن صنعاً لو أنه لا يصحو ثانية على الإطلاق، هو صاحب تجربة يعتدّ بها في البكاء، يستطيع رفع صوته بالبكاء دفعة واحدة فيبدو كأنه في ذروة بدأت منذ وقت طويل، لو أنه نجح في حياته بالإمساك بلحظة الذروة وحدها بكل هذه الدربة في مسائل الحياة لأصبح رهيباً، لعين هو نعم لكنه مسكين فهو لم يكن في يوم من الأيام إلا باكياً.





وهكذا انفجر نائحاً بصوت يثير الشؤم... ربنا آتنا في الدنيا حسنة وقنا عذاب النار... السلام عليكم ورحمة اللّه... السلام عليكم ورحمة اللّه... ما تبطلي المناحة دي يامره يحرق... ويقولها، ولا ندري كيف لفظها وهو الذي يرفع عصاه العوجاية ضارباً بها مؤخرة كل من يلفظها أمامه. ثم أننا ننغلق تماماً لبرهة فيشرع هو في ختام الصلاة. تنتفض أمي فجأة ثم تندفع خارجة، نرتعب، نضرب في أثرها، يكون من الواضح أنها ستفعلها مثلما فعلتها ذات ليلة كهذه، إذ خرجت إلى الخلاء ضائقة هالعة وما لبثت أن اختفت في جوف الظلام، لتعود بعدها بيومين وصحبتها رجل من أبناء عمها من عزبة الطوال، دخل وأنّب أبي تأنيباً شديداً، واستمع إليه أبي في صبر وهدوء خرافيين، ثم لعن له آباءه وآباء الذين خلّفوه، لكن الرجل في النهاية ترك أمي مرهوبة الجانب لبضع سنوات...

لكن أمي حين لحقنا بها توقفت عند باب الشارع نائحة: «رايحين ورايا فين؟عايزين مني إيه؟» ثم يغلبها اليأس فترتد في فراغ المندرة حائرة تضرب في الظلام، تظل واقفة لبرهة ثم تفترش الأرض جالسة، فنفعل مثلها. لكي يميتها أبي من الكيد قام في بساطة وأغلق باب الخزنة، فاختفى مستطيل الضوء الشاحب الذي كان منطرحاً من فتحة الباب، فغرقنا في الظلام والغموض والحيرة وإذا بأمي تصيح فينا وهي تقرصنا بقسوة في خدودنا وجنوبنا، وتضربنا بعنف مرددة: «لو كنت أعدمكم، لو كنت أصبح ما الاقيش حد منكم على وش الدنيا» ثم ترتد إلى نفسها فتروح تلطم خديها وتمزق في وجهها، وجعفر يصاحبها بالعواء المكتوم الملتاع المشئوم، وأنا أروح وأجيء حائراً أبكي بعمق. ينقذنا اللّه بطَرق على الباب، نعرف فيه نفحة أخوتي عائدين في اللهب البارد بعد أن أهلكتهم حقول الوسية. أجري فأفتح لهم، يتعالى صوت جعفر بالعواء في استقبال الوافدين. يدخل المناكيد كتلاً من الطين لا يفلح النهر نفسه في تخليص الآدميين منها. وفي الحال انتفضت أمي مندفعة نحوهم يرسل صوتها موجاً من الحنان الدافق: «قلب أمكم... اقلعوا اقلعوا». ينسون شقاءهم، تقول أختي بدرية في صوت تلمع على أوتاره قطرات المطر: «مالك يامه... كنتي بتعيطي ليه؟ عامله في نفسك كده ليه؟». تقول أمي: «قلبي واكلني عليكم من الصبح هو اللي أنا فيه شويه يا بدرية؟». تخف بدرية فتخلع عن نفسها شرائح الطين حتى صارت بعد برهة جسداً عارياً بديعاً أجمل من الصورة الملونة التي تنشرها المجلات لكي نعلقها نحن على حوائطنا. وهكذا فعلت بكل أخوتها، وانحنت فكوّمت بجوار الباب كومة هائلة من الطين والوحل المتماسك، ثم أقبلت أمي من دهاليز الدار حاملة الطشت والأبريق لأختي أن تترك الطين وتغتسل وفي الصباح تقوم هي بفرط الطين من الثياب على رواقة.

ندخل جميعاً إلى الخزنة راغمين. تنفتح الصحارة من جانبها الخلفي وتخرج هلاهيل قديمة يرتديها أخوتي. تصرّ أمي على إشعال الكانون ثانية لتسخين العدس كي يدفئ جوف الأولاد، يبرطم أبي مغمغماً في احتجاج على إثارة الدخنة من جديد، فلا تعبأ به أمي، هو أيضاً لا يعبأ بما قال، فينصرف إلى ما هو في من قراءة تفسير الجلالين والبيضاوي اللذين يفخر دائماً بأنه ورثهما عن أبيه الورع.

كلنا رغم الصقيع والحضيض والشظف لعب الكتاب برؤسنا وأورثنا رغبة دفينة في فكّ طلاسمه ومعرفة أسراره. ذلك أن أبي في الفترة الأخيرة من حياته كان يتعيش من «فتح الكتاب»، يجيئه المريض أو المعتل يسأله أن يفتح له الكتاب علّه يعرف علّته. لو فتح له أبي الكتاب في المندرة لما صدقه المعتلّ، فخير مكان إذن هو الخزنة، ربما لأنها بدعة غذّاها أبي في بداية الأمر، أن يصطحب المعتلّ معه إلى الخزنة، ويجلسه أمامه على المصطبة، ويفتح له كتاب شمس المعارف الكبرى أو كتاب ابن سيرين يظل يقرأ فيه برهة طويلة ثم يشرح للمعتلّ سر علّته واضعاً له العلاج الذي لا أظن أنه قد عالج أحداً من شيء إن لم يكن قد ضاعف من العلل. لكنا تعلّمنا القراءة وذهبنا إلى الكتاب في المواسم التي ينعدم فيها الشغل في الوسية: لم يكن أحد في العب كله يتصور في يوم من الأيام أن أربعاً من أخوتي هم بدر وحسن وفلّ وجعفر يأخذون الشهادة الابتدائية من منازلهم بتفوق كبير، ثم يقرّرون الاستمرار في التعليم فإذا بهم يرتحلوا إلى المدينة ويشتغلون فيها شتّى الأعمال للانفاق على التعليم، حتى تخرّجوا في معهد المعلّمين والمعهد الفنّي.

أنا وحدي الذي لم أفلح في شغل الحقل ولم أوت صبراً على احتقار المدرّسين لي ومَن هم على شاكلتي، وذات يوم ضربني المدرّس بالشلوت فألقاني خارج الفصل محطّماً، فجنّ جنوني وأهلت عليه طوب الشارع كله حتى دمرت زجاج الفصل كله وأثرت فزعاً هائلاً لكن مؤخرتي ظلت توجعني طول العمر خاصة كلما جلست إلى كتاب. لم أعد للمدرسة بعدها أبداً، وصرت أشغل وقتي بمساعدة الناس في أعمالهم لقاء هبة أو عطية، وأقرأ لهم الخطابات وأكتبها، ولما كبرت قليلاً كان قد وقر في ذهني أنني لا بد أن أرث ولع أبي فتح الكتاب، وانصرفت إلى هذا الأمر معتزماً أن أتقنه أكثر من أبي وأجني من وراءه أرباحاً طائلة، لكنني ما إن شرعت أقرأ حتى تذكرت حلم أبي القديم باكتشاف سر حجر الفلاسفة الذي يستطيع تحويل المعدن الرخيص إلى معدن ثمين... وهكذا انفتحت على عالم القراءة فلم أعد أعرف لي دخلاً من خرج، وبت كضال في بحور لا يعرف لها قراراً أو شطآناً. أتكسب بطرق بهلوانية ولو بمساعدة البقّال في جمع حساباته أو في توزيع التموين.

تزوج البنات واحدة وراء الأخرى في قرى وعزب مجاورة...

بقيت وحدي أعول عجوزين متهالكين أقاسي معهما مرارة المرض والفاقة والأشباح في الخزنة. آه كم شهدت هذه الخزنة من أيام تركت لنفسها أشباحاً خاصة مميزة عن بقية الأشباح. ففي الخزنة تمّت خطوبة أخوتي البنات، وعقد قرانهن ومنها انطلقت الزغاريد رائقة حراقة سعيدة حقاً، وخرجت العروس مجلوة كالقمر، وفوق هذه المصطبة الرفيعة احتفلنا بخطابات النجاح التي يرسلها أخوتي. وفيها نعم فيها... تلقينا العزاء في ثلاث من أخوتي هم بدر وحسن وفل... وثلاثتهم ماتوا في حروب متوالية.

اطمأن قلبي حين رأيت أبي يعفو عنهم لحظة الوداع، وهو الذي كان لا يكفّ عن لعنهم في خطابات مطولة بسبب طول ابتعادهم عنا والانفصال تقريبا، حتى ساعات الإجازة من الجيش كانوا يقضونها في المدينة ـ على حد قوله ـ يبرطعون ويفنطزون. أما أمي فكانت تعذرهم دائما، وتقول في صدق وانفعال أن مَن يخرج من هذه الخزنة يكون مجنوناً لو عاد إليها. الوحيد الذي رطّب قلوبنا هو أخي جعفر، حيث كان لا يغادرنا إلا للإتيان بالدروس والعودة للسهر في الخزنة حتى الصباح يذاكر ويحلّ المسائل وسط الرطوبة والصنان وعلى ضوء الذبالة المرمدة. أحببناه حباً شديداً لفرط حنوّه علينا، العجيب أن موهبته القديمة في البكاء انقلبت في سنوات الصبا والشباب إلى موهبة في الضحك لا تحدّها حدود، ولم تكن أمه فحسب هي التي تدعو له بطول العمر والنجاح بل كل مَن رآه أرسل في أعقابه الدعوات، حتى لقد اقتنعنا جميعاً بأن دعوات الناس وحبهم له هي التي منحته التوفيق والتقدم، لقد حصل على أعلى الشهادات، تلك التي يسمونها بكالريوس، وهي فيما يبدو شهادة عالية جداً جداً في أمور التجارة ومسك الدفاتر وما أشبه، وكان أبي في الواقع يريده دكتورا، ولكن جعفر الأستاذ كان يعشمه بأنه سوف يأخذ الدكتوراه بالفعل ولكن في علم التجارة أيضا، فيضحك أبي ويوصيه أن حصل على الدكتوراه أن يعالج التجارة في بلادنا من أمراض الشره والاستسلاب والنهب، فبدوره يضحك جعفر الأستاذ ويقول لأبيه أن هذه الأمراض في الناس لا في التجارة، مع ذلك ظلّ أبي في ولع شديد يناديه بالدكتور،



والناس ينساقون وراءه بنفس الولع، حتى لقد اختفى اسم جعفر تماماً وحلّ محلّه اسم الدكتور. على أن الدكتور حين توظّف في العاصمة بدأت زياراته لنا تقلّ، ومدده يضمحل، وقيل أنه الزواج قد شغله. ثم انفصل عنا تماماً، وقيل أنهم الأولاد. وبدأ وجه أمي يزداد ذبولاً وقلب أبي يزداد جفافاً.
في ليلة تمدّد أبي فوق المصطبة واشتكى من صدره وضيق تنفسه، وراح يسأل عن الدكتور. وكنا قد أرسلنا إلى المدينة العاصمة عدداً من البرقيات ردّت كلها إلينا تفيد عدم الاستدلال على العنوان... ولم نكن نبلغ أبي عن ذلك. ومع الفجر كفّ صدره عن الخرخشة نهائياً، وصوّتت أمي وولولت كشابة في العشرين، وبكيت أنا كما لم أبك من قبل، ليس للفراق فحسب بل لوحدتي القاسية في كل شيء ابتداء من تسبيل عينيه حتى فحت القبر ذلك أن أبناء عمومتي وخئولتي كانوا قد سافروا إلى بلاد العرب بحثاً عن الثراء، وكنت قد رميت طوبة الجميع منذ أن مات الأعزاء منهم في الحروب الثلاثة المشئومة.
أبداً لم نصبح وحدنا أمي وأنا، رغم فراغ الخزنة. ذلك أن ليل الخزنة والذبالة المرمدة الشاحبة كانا يستحضران كل الغائبين جميعاً مَن غاب منا ومَن قد حضر ليست فقط موجودة بالذكريات بل هي محفورة في الخزنة كما انحفرت عيدان الحصيرة على جسده.
إن رائحته لا تزال في الخزنة ولن تنمحي أبداً عنها مثلما أن رائحة الخزنة لن تفارق أنفه أبد الدهر حتى لو عاش في بلاد واق الواق، هذا ما أنا واثق منه على الأقل، ومع ذلك لست أعرف هل لهذه الرائحة لم يعد أخي جعفر كل هذه السنين؟ ربما كان استقرار رائحة الخزنة في أنفه قد عيشه في إحساس سرمدي بأنه لم يغادرها بعد ولهذا لم توحشه ولم يوحشه سكانها وهم بقايا لحمه، وكنت أسمع من بضعة أيام رجلاً يتحدث في الراديو كان صوته يشبه إلى حد كبير صوت جعفر، وكان يحكي عن أخوة له أسماؤهم تشبه أسماءنا، وكانت عين أمي تشرئب نحو الراديو ووجهها يرتعش وقلبي يتابعها بالخفقان وقد تيقنّا معاً أن المتحدث هو جعفر، وقال مَن يشبه جعفر أن له ثلاثة أخوة استشهدوا في الدفاع عن البلاد في ثلاثة عقود من الزمن، وانتفضت أمي واقفة صارخة «هوه، هو ابني جعفر اللي بيتكلم في البتاع دهوه»، ضحكت كالعبيط ضحكة صاعقة لا أدري إن كنت أقصد بها الفرح أم الاستنكار، ولكني كنت إلى التصديق أميل إذ أن المتحدث حدّد أسماء أخوته الثلاثة الشهداء فإذا هم بدر وحسن وفلّ... فالمتحدث إذن هو جعفر بذات نفسه، لكن المذيعة حين سألته عن ذكرياته في القرية وبدأ يجيب بدأنا نتوه معه ولا نتعرف عليه، وبدا خيط الحديث يشرد منا، ثم اقتحمت الحديث أغنية راقصة كأنها تنغز في صدورنا بالإبر، وتربّعت أمي وقالت بشكل حاسم: «مش هوه... ما دام الخزنة ما وردتش في كلامه يبقى مش هوه»، وقلت: «نعم يا أمي هذا صحيح مائة في المائة». كل ما كان هنالك من فرق لم يعرفه جعفر حتى الآن أن ذبالة الضوء لم تعد هذه المرة تصدر من مصباح الغاز نمرة خمسة بل من مصباح كهربي صغير بعد أن دخلت الكهرباء قريتنا، لكن الكهرباء لم تستطع محو ذبالة الضوء المرمدة من عيني التي يبدو أنها استقرت فيهما إلى غير محو أبداً، وثمة صورة جديدة علّقت بجوار صورة الرئيس السادات كلما نظرت إليها تذكرت كيف مات صاحب الجلباب والطاقية والعصا في برجه الحصين، وثمة راديو صغير صنعت له صندوقاً خشبياً كبيراً ووضعته فوق رفّ الدولاب تفتحه أمي على محطة القرآن الكريم ليل نهار. وكنت أنظر في كتب أبي الصفراء فلا أجد ثمة فرق يذكر بين ما تنطقه سطورها وما ينطقه الراديو. وقد أنعش الراديو أمي لسنوات قليلة لكنها سرعان ما سئمته وأخلدت لنوم طويل متقطع تتخلّله الآهات واللهاث والآلام المبرحة، إلى أن فاضت روحها الكريم وهي ترسل الدعوات لأخي الدكتور الذي لعلّه قد بات دكتوراً بالفعل فأقول لها: وأنا يا أم أتغفلينني؟ فتبتسم ابتسامة واهنة وتقول: «لأنه في الغربة لا نعرف عنه شيئاً»...
دفنتها جوار أبنائها وزوجها، وعدت إلى الخزنة كفرع يابس تتخطفه الرياح.